PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY DUPL>
Princeton University Library
32101 061977268

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

لُبَابُ الهِدَايَة
و
مَنَارُ الدِّرَايَة

مصطفى مرتضى

Murtaḍá

مصطفى مرتضى

لُبَابُ الهِدَايَة

و

مَنَارُ الدِّرَايَة

(RECAP)
(Arab)
KBL
.M8774
1985

الكتاب: ((لباب الهداية ، ومنار الدراية)).
المؤلّف: السيّد مصطفى مرتضى العاملي.
الطبـــع: سنة (١٤٠٦ هـ) قم ـ إيران.
المطبوع: ألفا نسخة.

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY DUPL
32101 022108292

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله الأول القديم الأزلي ، الباقي السرمدي ، والصلاة والسلام على أكرم نبيّ ، وخير صفي ، وعلى آله ذوي المقام العلي ..

وبعد :

فهذه آيات قرآنيّة ، وأحاديث إماميّة ، وآثار إسلاميّة ، وعقائد توحيديّة مصدرها سيّد النبيين ، وإمام المرسلين (صلّى الله عليه وآله الطيّبين الطاهرين) جمعتها في هذا السفر الصغير ، لتكون لي ذخيرة يوم الدين ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وأسميتها : ((لباب الهداية ومنار الدراية)) ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكّلت وإليه أُنيب .

مصطفى مرتضى

الشَيطان يُخوّف أولياءَه

قوله تعالى :

﴿إنما ذلكم الشيطان يُخوّف أولياءه فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين﴾ (آل عمران/ الآية ١٧٥) .

الشيطان : إسم جنس ، يعمّ كلّ داعٍ إلى الشرّ ، وصادٍّ عن الخير ..

يدلّ على هذا قوله (عزّ من قائل) :

﴿شياطين الإنس والجنّ يُوحي بعضهم إلى بعض زُخرف القول غُرورا﴾ (الأنعام/ الآية ١١٢) .

وقوله :

﴿الوسواس الخنّاس الذي يُوسوس في صدور الناس من الجِنّة والناس﴾ (سورة الناس) .

وهو مأخوذ من الشطن، بمعنى : البُعد ، فكأنه سُمّي شيطاناً لأنه تباعد عن الخير وطال مكثه في الشرّ، والشطن أيضاً : الحبل الطويل المضطرب فكأنه سُمّي بذلك لإضطراب عقيدته وعدم استقراره على شيء من الحق، والشاطن : الخبيث، فكأنه مأخوذ منه لخبثه .

قال أُميّة بن أبي الصلت يذكر نبيّ الله سليمان (على نبيّنا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام):

أيما شاطن عصاه عكاه ثم يلقى في السجن والأغلال

وفي قوله تعالى :

﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم ..﴾ (البقرة/ الآية ١٤)

قال في الكشّاف: شياطينهم ، الذين ماثلوا الشياطين في تمرّدهم .

وقد جعل سيبويه نون الشيطان ـ في موضع من كتابة ـ أصليّة ، وفي آخر زائدة ، والدليل على أصالتها قولهم : تشيطن ، واشتقاقه من شطن اذا بعد ، لبُعده عن الخير والصلاح ، ومن شاط إذا بطل ، إذا جعلت نونه زائدة ، ومن أسمائه : الباطل ، إنتهى .

وتخويف الشيطان أولياءه ليس معناه أنه يُحذّرهم سطوة المؤمنين ، ويُخوّفهم بأس أهل الحق .. وإنما يخوّف المؤمنين من أوليائه بدليل قوله : ﴿فلا تخافوهم﴾ أي لا تخافوا منهم ، ثم قال بعد ذلك : ﴿وخافونِ إن كنتم

مؤمنـــــين﴾ .

وقال الرازي :

فيه سؤال : وهو أن الذين سمّاهم اللّه بالشيطان إنما خوّفوا المؤمنين ، فما معنى قوله :﴿الشيطان يُخوّف أولياءه﴾ ؟ والمفسّرون ذكروا فيه ثلاثة أوجه :

(الأول) : تقدير الكلام : ذلكم الشيطان يخوّفكم بأوليائه ، فحـــذف المفعول الثاني وحذف الجار ، ومثال حذف المفعول الثاني قوله تعالـــى : ﴿فاذا خفت عليه فألقيه في اليم﴾ (القصص/ الآية ٧) أي : فاذا خفت عليـــه فرعون ، ومثال حذف الجار قوله تعالى : ﴿ليُنذر بأساً شديدا﴾ (الكهـــف/ الآية ٢) أي : ليُنذركم ببأس ، وقوله :﴿ليُنذر يوم التلاق ﴾ (غافر/ الآية١٥) أي : ليُنذركم بيوم التلاق ، وهذا قول الفرّاء والزجّاج وأبي على ، قالوا : ويدل عليه قراءة أبيّ بن كعب : ((يُخوّفكم بأوليائه)) .

(القول الثاني) : انّ هذا على قول القائل : ((خوّفت زيداً عمراً)) ، وتقدير الآية : ﴿يُخوّفكم أولياءه﴾ فحذف المفعول الأول ، كما تقول : أعطيـــت الأموال ، أي : أعطيت القوم الأموال .

قال ابن الأنباري : وهذا أولى من ادّعاء جار لا دليل عليه .

وقوله : ﴿ليُنذر بأساً﴾ أي : ليُنذركم بأساً ، وقوله :﴿ليُنذر يوم التـلاق ﴾ أي : ليُنذركم يوم التلاق ، والتخويف يتعدّى إلى مفعولين من غير حرف جر ، تقول : ((خاف زيد القتال)) ، وهذا الوجه يدلّ عليه قراءة ابن مسعـــود : ((يخوّفكم أولياءه)) .

(القول الثالث) : انّ معنى الآية :

يخوّف أولياءه المنافقين ليقعدوا عن قتال المشركين ، والمعنى : يخوّف أولياءه الذين يطيعونه ويُؤثرون أمره ، فأما أولياء اللّه فانهم لا يخافونـــه إذا

خوّفهم ولا ينقادون لأمره ومراده منهم، وهذا قول الحسن والسدّي.

فالقول الأول فيه محذوفان، والثاني فيه محذوف واحد، والثالث لا حذف فيه.

وأما الأولياء: فهم المشركون والكفّار، وقوله: ﴿فلا تخافوهم﴾ الكناية في القولين الأولين عائدة إلى الأولياء، وفي القول الثالث عائدة إلى الناس في قوله: ﴿إنّ الناس قد جمعوا لكم﴾ (آل عمران/ الآية ١٧٣) ﴿فلا تخافوهم﴾ فتقعدوا عن القتال وتجبُنوا ﴿وخافون﴾ فجاهدوا مع رسولي وسارعوا إلى ما يأمركم به ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني: انّ الايمان يقتضي أن تُؤثروا خوف اللّه على خوف الناس، إنتهى.

وقال بعض الفضلاء: الخوف على ثلاثة أقسام:

خوف العام، وهو من عقوبة اللّه، وخوف الخاص، وهو من بعد اللّه، وخوف الأخص، وهو من اللّه، وإلى هذه المراتب أشار النبيّ الأكرم (صلّى اللّه عليه وآله) بقوله:

((أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك)).

عِبادُ اللّه

وفي تفسير النيسابوري:

يروى أن عيسى (عليه السلام) مرّ بأقوام نحفت أبدانهم، واصفرّت وجوههم، ورأى عليهم سيماء الطاعة، فقال: ماذا تطلبون؟ فقالوا: نخشى عذاب اللّه، فقال: هو أكرم من أن لا يخلّصكم من عذابه، ثم مرّ بآخرين فرأى عليهم تلك الآثار فسألهم، فقالوا: نطلب الجنّة والرحمة، فقال: هو أكرم من أن يمنعكم رحمته، ثم مرّ بقوم ثالث ورأى عليهم سمات العبوديّة أكثر فسألهم،

فقالوا : نعبده لأنه إلٰهنا ونحن عبيده، لا لرهبة ولا لرغبة، فقال : أنتم العبيد المخلصون، والمتعبّدون المحقّون.

قلتُ: يُؤيّد هذا ما ورد عن سيّدنا الإمام الحسين (صلوات اللّه عليه) :

((إن قوماً عبدوا اللّه رغبة ؛ فتلك عبادة التجّار، وإن قوماً عبدوا اللّه رهبة ؛ فتلك عبادة العبيد ، وإن قوماً عبدوا اللّه لأنه أهل للعبادة ؛ فتلك عبادة الأحرار)) .

ولا تعجب إذا وجدت هذا التعبير نفسه في كلام أبيه أمير المؤمنين (عليه السلام) حيث يقول في دعائه :

((إلٰهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنّتك، ولكنّي وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك، أنت كما أُريد ؛ فاجعلني لك كما تُريد)) .

لأن كلّهم (صلوات اللّه عليهم) يصدرون من معين واحد.

سلسلة الذهب

ولقد سُئل الإمام الرضا (عليه السلام) عن الحديث يرويه فلا يسنده فقال ما معناه :

((كلّ حديث أرويه فانما سندي فيه أبي عن جدّي عن أبيه عن جدّه عن أمير المؤمنين عن رسول اللّه عن جبرئيل عن اللّه عزّ وجل)) .

وإلى هذا أشار بعض الشعراء :

إذا شئت أن ترضى لنفسك مذهباً
يُنجيك يوم الحشر من لهب النار
فوال أُناساً ذكرهم وحديثهم
روى جدّنا عن جبرئيل عن الباري

واعلم انّ العاقل لا يزكّي نفسه، ولا يرى أنه أهل للكرامة عند اللّه (عزّ وجل) ، حتى ولو كان معصوماً ؛ فيرى أن فتوره ونومه من التقصير في عبادة

مولاه، فيستكثر سيّئآته وإن صغرت وقلّت، ويستقلّ حسناته وإن كثرت وعظمت، وذلك انّ اللّه لا يُعبد حقّ عبادته، بل يتواضع ويعدّ نفسه مسيئاً أمام عظمة اللّه.

وقد روي في الكافي مرفوعاً عن الصادق(عليه السلام):

((إن من العبادة شدّة الخوف من اللّه(عزّ وجل)، يقول اللّه: ﴿إنما يخشى اللّه من عباده العلماء﴾ (فاطر/الآية ٢٨)، وقال(جلّ ثناؤه): ﴿فلا تخشوا الناس واخشون﴾ (المائدة/الآية ٤٤)، وقال (جلّ ثناؤه): ﴿ومن يتّق اللّه يجعل له مخرجا﴾ (الطلاق/الآية ٢).

وقال أبو عبد اللّه(عليه السلام):

((إن حبّ الشرف والذكر لا يكونان في قلب الخائف الراهب)).

وفي بعض الأخبار:

إن رجلاً ركب البحر بأهله فكسر بهم، فلم ينج ممن كان في السفينة إلا إمرأة الرجل، فانها نجت على لوح من ألواح السفينة، حتى أُلجئت إلى جزيرة من جزائر البحر، وكان في تلك الجزيرة رجل يقطع الطريق، ولم يدع للّه حرمة إلا إنتهكها، فلم يعلم إلا والمرأة قائمة على رأسه، فرفع رأسه إليها فقال: إنسيّة أم جنيّة؟ فقالت: إنسيّة، فلم يكلّمها بكلمة حتى جلس منها مجلس الرجل من المرأة، فلمّا همّ بها اضطربت، فقال لها: مالك تضطربين؟ فقالت: أفرق من هذا ــ وأشارت بيدها إلى السماء ــ، قال: وصنعت من هذا شيئاً؟ قالت: لا، وعزّته، قال: فأنتِ تفرقين منه هذا الفرق ولم تصنعي من هذا شيئاً؟ وإنما إستكرهتكِ إستكراهاً؟ فأنا واللّه أولى بهذا الفرق والخوف وأحقّ منكِ، قال: فقام ولم يحدث شيئاً، ورجع إلى أهله وليست له همّة إلا التوبة، والمراجعة، فبينا هو يمشي إذ صادفه راهب يمشي في

الطريق، فحميت عليهما الشمس، فقال الراهب للشاب: أُدع الله يظلّنا بغمامة، فقد حميت علينا الشمس، فقال الشاب: ما أعلم أن لي عند الله حسنة فأتجاسر على أن أسأله شيئاً، قال: فأدعو أنا وتُؤمّن أنت؟ قال: نعم، فأقبل الراهب يدعو والشاب يُؤمّن، فما كان بأسرع من أن أظلّتهما غمامة، فمشياً تحتها ملياً من النهار، ثم تفرّقت الجادّة فرقتين، فأخذ الشابّ في واحدة وأخذ الراهب في واحدة، فاذا السحابة مع الشاب، فقال الراهب: أنت خير منّي، لك استُجيب ولم يستجب لي، فأخبرني ما قصّتك؟ فأخبره بخبر المرأة، فقال: غفر لك ما مضى حيث دخلك الخوف، فانظر كيف تكون فيما تستقبل.

وفي هذا دليل على أنّ ترك كبيرة واحدة مع الاقتدار عليها خوفاً من الله تعالى وخالصاً لوجهه موجب لغفران الذنوب كلّها، وأما حقوق الناس، فلا يبعد أنّ الله يتحمّلها عنه إذا صحّت توبته وصدق خوفه، على ما ورد في أدعيتهم (عليهم السلام):

((اللهم إنّ لك حقوقاً فتفضّل بها عليّ، وللناس قبلي تبعات فتحمّلها عنّي)).

وفي الكافي في باب الخوف والرجاء، عن الصادق (عليه السلام):

((المؤمن بين مخافتين: ذنب قد مضى لا يدري ما صنع الله فيه، وعمر قد بقي لا يدري ما يكتسب فيه من المهالك، فهو لا يصبح إلا خائفاً، ولا يصلحه إلا الخوف)).

يعني: انّ الخوف كما يكون بالنسبة إلى ما يأتي، يكون بالنسبة إلى ما مضى، وهذان يوجبان تحقق كمال الانسان، لأن الخوف مما مضى يوجب تصميم العزم بالتوبة، والاستغفار والتدارك، والاعتراف بالتقصير، واشتغال

القلب بذكر الرب.

والخوف مما يأتي ، كأن يخاف الإنسان أن يقترف معصية ، أو يغتر بما يصل إليه من الحطام البائد ، فيغفل قلبه فلا يذكر اللّه إلا قليلاً ، وينصرف إلى الشهوات، وترك الطاعات، فيقصر عن نيل الدرجات، وهذا الخوف يحمله على الاجتهاد في اكتساب الخيرات، والمبادرة إلى تحصيل الكمالات والمحافظة على أوقات العبادات.

والخالي من الخوف قاسي القلب ، فاسد العقل ، وقاسي القلب بعيد من اللّه ، كما ورد : انّ اللّه أوحى إلى موسى (على نبيّنا وآله وعليه السلام) :

((يا موسى لا تطوّل في الدنيا أملك فيقسو قلبك، وقاسي القلب منّي بعيد)) .

وفي القرآن الكريم :

﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر اللّه أُولئك في ضلال مُبين ﴾

(الزمر/ الآية ٢٢) .

والغرض من هذا كلّه : إستمرار الخوف من اللّه دائماً .

العَقْل

((حديث)) :

روي في الكافي ، مرفوعاً ، قال : قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) :

((ما قسم اللّه للعباد شيئاً أفضل من العقل ، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل ، ولا بعث اللّه نبيّاً ولا رسولاً حتى يستكمل العقل ، ويكون عقله أفضل من عقول جميع أُمّته ، وما يضمر النبيّ في نفسه أفضل من اجتهاد المجتهدين ، وما أدّى العبد فرائض اللّه حتى عقل عنه ،

ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل ، والعقلاء هم أُولوا الألباب الذين قال الله :﴿ وما يذكّر إلا أُولوا الألباب﴾)) . (البقرة/ الآية ٢٦٩) و(آل عمران/ الآية ٣) .

حيث انّ العقل هو المناط لجميع الفيوضات الدنيويّة والأُخرويّة ،، وليس شيء من الأغيار بهذه المثابة ، فلا جرم هو أفضل من جميع ما قسم اللّه (عزّ وجل) للعباد ، والجهل ـ بحكم المقابلة ـ أخسّ جميع الأشياء ، ويظهر وجه التفريع في قوله(صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) :((فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل)) وذلك لوجوه أربعة :

(الأول) : انّ حقيقة السهر ـ لأجل العبادة طبعاً ـ وإن كان أفضل من حقيقة النوم ، إلا أنّ النوم المقارن للعقل أفضل من السهر المقارن للجهل بحكم المقابلة للملابسة والمجاورة ، ففيه زيادة مبالغة على شرافة العقل وخساسة الجهل .

(الثاني) : انّ العاقل لا ينام إلا بطهارة ودعاء ، وتستغفر له الملائكة ويكتبون له الصلاة ما دام نائماً ، ففي الجزء الأول من الوسائل/ ص٢٦٥ عن الصادق (عليه السلام) قال :

((من تطهّر ثم آوى إلى فراشه بات وفراشه كمسجده ، فان ذكر أنه على غير وضوء فتيمم من دثاره كائناً ما كان لم يزل في صلاة ما ذكر اللّه)) .

وفيه/ ص (٢٦٦) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال :

((لا ينام المسلم وهو جنب، ولا ينام إلا على طهور، فان لم يجد الماء فليتيمم بالصعيد ، فانّ روح المؤمن تصعد إلى اللّه(عزّ وجل) فيتلقّاها ويُبارك عليها ، فان كان أجلها قد حضر جعلها في مكنون رحمته ،، وإن لم يكن أجلها قد حضر بعث بها مع أُمنائه من الملائكة فيردّها

في جسده)) .

وفي حديث سلمان عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) قال :
((من بات على طُهر فكأنما أحيا الليل)) .

ومعلوم أنّ الصلاة المكتوبة له واستغفار الملائكة له أفضل بكثير من عبادة الجاهل .

(الثالث) : انّ نوم العقلاء وكُمَّل المؤمنين يُوجب ارتباطهم بأرواح الأنبياء والمرسلين والملائكة المقرّبين ومن يُضاهيهم من المقدّسين ، واطّلاعهم على الألواح السماويّة ، ورجوعهم إلى عوالمهم القدسيّة التي كانوا فيها قبل نزولهم إلى الأبدان ، فهو في الحقيقة معراج ، وما يشاهدونه في ذلك النوم بمنزلة الوحي ، ولذا الرؤيا الصادقة جزء من ستّة وأربعين جزءاً من النبوّة ، كما دلّت عليه الروايات ، هذا بخلاف سهر الجاهل .

(الرابع) : انّ العاقل لا ينام إلا بقدر الضرورة ، لينفي عن جسمه التعب والكلل ، ولتحصل له القوّة على العبادة ، وليكون ذلك وسيلة إلى عبادة أُخرى ، ولا شكّ انّ نومه على هذا الوجه عبادة ، وهذه العبادة مستندها العقل ، فانّ العقل يحكم بأنّ كلّ ما يفعله الإنسان من المباحات لأجل القوّة على عبادة الله من العبادة ، وصحيح أن الجاهل يقصد بسهره مداومة العبادة والمثابرة عليها ، ولكنّ العقل لا يقرّ هذا العمل ، لأن الجسم يكلّ والنفس تملّ ، ومع الكلل والملل لا يتمّ الإتجاه كلّياً إلى الله تعالى ، وربما أوقعه عدم النوم في بعض الأمراض الصعبة فلا يعود قادراً على تأدية الواجب فضلاً عن المستحب ، ألا ترى أن قوماً على عهد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حرّموا على أنفسهم الطيّبات ، فنهاهم النبيّ (ص) عن ذلك ، وقال :

((إنّ لأنفسكم عليكم حقّاً ، فصوموا وأفطروا ، وقوموا وناموا ، فاني أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وآكل اللحم والدسم ، وآتي النساء ، ومن رغب عن سُنّتي فليس منّي)) .

ثم جمع الناس وخطبهم ، وقال :

((ما بال أقوام حرّموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا أما إنّي لستُ آمركم أن تكونوا قسّيسين ورهباناً ، فانه ليس في ديني ترك اللحم ولا النساء ، ولا اتخاذ الصوامع ، وانّ سياحة أُمّتي الصوم ، ورهبانيّتهم الجهاد ، أعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئاً ، وحجّوا واعتمروا ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وصوموا شهر رمضان ، واستقيموا يستقم لكم ، فانما هلك من كان قبلكم بالتشديد ، شددوا فشدد اللّه عليهم ، فأُولئك بقاياهم في الديارات والصوامع)) .

وأنزل اللّه تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تُحرّموا طيّبات ما أحلّ اللّه لكم)) .

(المائدة / الآية ٨٧) .

ومن هنا نعلم أن العبادة المستندة إلى العقل خير من العبادة غير المستندة إليه ، وذلك انّ العقل يقرر ما قرره الشرع ويرفض ما عداه .

وفي النهج : سمع أمير المؤمنين (عليه السلام) رجلاً من الحروريّة يتهجّد ويقرأ ، فقال (عليه السلام) :

((نوم على يقين خير من صلاة في شكّ)) .

والوجه ظاهر ، لأنّ صلاة الشاكّ فيما يجب اعتقاده ، وأما نوم المؤمن ففوائده مما لا شكّ فيه .

وقول الإمام زين العابدين (عليه السلام) في دعاء الصباح :

((فخلق لهم الليل ليسكنوا فيه من حركات التعب ، ونهضات النصب، وجعله لباساً ليلبسوا من راحته ومنامه ، فيكون ذلك جماماً وقوّة)) .

دليل انّ قصد العاقل من النوم إنما هو لمصلحة مركب البدن في طريق سفره إلى الدار الأُخرى .

قوله(صلّى اللّه عليه وآله) :

((وإقامة العاقل خير من شخوص الجاهل)) .

القصد من الشخوص الذهاب من بلده إلى غيره من البلاد ، طلباً للخير والثواب، كخروج في حجّ أو جهاد أو طلب علم أو نحو ذلك، وظاهر انّ في الشخوص مشقّة زائدة على الإقامة ، ولكن حيث انّ الأعمال بالنيّات، وانّ روح العمل بنيّة التقرّب إلى اللّه تعالى ، وهذا لا يكون إلا بعد المعرفة واليقين كما هو شأن العقلاء ، والجاهل عن ذلك بمعزل ، حيث لا يقين إلا بمعرفة ، ومن أين للجاهل المعرفة ؟ فلذلك كانت إقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل .

وأيضاً فانّ عقل العاقل ـ وإن كان جسده مقيماً ـ ولكنّه سائر في المقامات العالية التي لا تخطر ببال الجاهل أبداً ، وله في كلّ آن من الآنات سفر روحاني وشهود ربّاني ، وما من شكّ أن سير الروح في معارج العرفان مع سكون الجسم أفضل من سير الجسم في البلدان مع سكون الروح ، ولأنّ العاقل يختار ماهو الأنسب والأصلح ، فانّ كان الصلاح في الشخوص شخص وإلا كانت الإقامة أولى ، فشخوصه وإقامته عبادة ، ولا ريب أن عبادة العاقل أشرف من عبادة الجاهل .

الفرق بين النبيّ والرسول

قوله(صلّى اللّه عليه وآله) : ((ولا بعث اللّه نبيّاً ولا رسولاً)) من باب ذكر الخاص بعد العام، لأن النبيّ أعمّ من الرسول، فانّ كلّ رسول نبيّ، وليس العكس.

ففي الكافي ج ١/ص١٧٥، عن زيد الشحّام، قال: سمعتُ أبا عبد اللّه(عليه السلام) يقول:

((إنّ اللّه تبارك وتعالى إتّخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتّخذه نبيّاً، وانّ اللّه اتّخذه نبيّاً قبل أن يتّخذه رسولاً، واتّخذه رسولاً قبل أن يتّخذه خليلاً، وانّ اللّه اتّخذه خليلاً قبل أن يجعله إماماً، فلمّا جمع له الأشياء قال: ﴿إنّي جاعلك للناس إماماً﴾ قال: فمن عظمها في عين إبراهيم قال: ﴿ومن ذرّيتي قال: لا ينال عهدي الظالمين﴾، قال: لا يكون السفيه إمام التقي.

والوجه في القبليّة: التدرّج في مراقي الشرف، فالرسالة أرفع درجة من النبوّة، كما انّ النبوّة درجتها أرفع من العبوديّة، ودرجة العبوديّة عامّة لجميع الخلق، أما النبوّة فلم تكن إلا للمخصوصين بالعصمة دون غيرهم.

وفي حديث عن الإمام الباقر(عليه السلام):

((النبيّ هو الذي يرى في منامه ويسمع الصوت ولا يعاين الملك، والرسول الذي يسمع الصوت ويرى في المنام ويعاين الملك)).

فالرسول أرفع درجة من النبيّ، ولا سيّما انّ الرسول مأمور بتبليغ الدعوة إلى الناس وتعليمهم، أما النبيّ فلا يلزمه ذلك، ولكن عليه أن يجيب السائل بالحق الصريح.

والنبيّ مأخوذ من النبو وهو الإرتفاع، فهو نبيّ لأنّ مقامه مرتفع عن

مقام غيره، أو هو مأخوذ من النبأ أي الخبر، فهو نبيّ لأنه يُنبىء عن اللّه (عزّ وجل) أي انه يأتي بالخبر عنه تعالى، أو لأنه يُنبىء الناس بما يُصلحهم ويعود عليهم بالنفع.

مَعْنَى الخُلّة

وأما الخلّة فيندرج تحتها أمور ثلاثة:

(الأول): انّ الخلّة هي فراغ القلب عمّن سواه، والإنقطاع إليه تعالى خاصّة، وقد كان إبراهيم (عليه السلام) بهذه الصفة، كما يُرشد إليه عندما رمي بالمنجنيق وجاءه جبرائيل (عليه السلام) وقال له: ألك حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا، فنفى (عليه السلام) ـ وهو في تلك الحالة العظيمة ـ أن يدلي بحاجته إلا إلى اللّه وحده، فلم يتّسع قلبه لغير اللّه، والخليل من لا يتّسع قلبه لغير الواحد، ولا شبهة أن هذه الدرجة فوق درجة الرسالة، إذ ليس من لازم كلّ رسول أن تكون له هذه الدرجة.

(الثاني): انّ الخلّة هي صفاء المودّة، ولا يبعد إرجاعه إلى المعنى الأول، لأن من كانت مودّته لخالقه تعالى لم تكن له حاجة إلى غيره أصلاً، ولا ينظر إلى سواه قطعاً، وإلا فمودّته مشوبة، بل لا مودّة له البتّة.

(الثالث): انّ الخلّة إختصاص رجل بشيء دون غيره، ولا ريب أنه (عليه السلام) كان له قرب من اللّه تعالى لم يكن لغيره، وهذه الدرجة أيضاً فوق درجة الرسالة.

والخلّة (بفتح الخاء)، الحاجة والفقر، ولا يبعد أن يكون (عليه السلام) من هذا القبيل، ومعناه المفتقر إلى اللّه، ولا يقبل المعونة من سواه.

وأما الإمامة: فلا شك أنها أفضل من الخلّة، لأنها شرف أعلى،

ودرجة أرفع ، وفضيلة لا تدانيها فضيلة ، وهي أجلّ قدراً ، وأعلى شأنـــاً ، وأعظم منزلة ، وأمنع جانباً ، وأبعد غوراً من أن يبلغها البشر بعقولهـــم ، وحســبك انّ الله(عزّ وجل) شرّف بها نبيّه إبراهيم(عليه السلام) وجعلـها تمام الشرف له ، ومن عظمها في عين إبراهيم حرصه على أن لا تخرج عـن ذرّيته ، فقال وهـو مسرور بها :﴿ومن ذرّيتي﴾ فقال الله تعالى ــ مؤمّناً إلى إجابة دعائه ومصرّحاً بأنّ الظالم في الجملة لا ينالها ــ :﴿لا ينال عهـدي الظالميـن﴾ .

فأبطلت هذه الآية إمامة كلّ سفيه ، وحـرّمت تقدّم كلّ ظالم على البرّ التقي ، وقررتها في الصفوة إلى يوم القيامة .

قوله(صلّى الله عليه وآله) : **النبيّ أعقل أُمّته**

((حتى يستكمل العقل ، ويكون عقله أفضل من جميع عقول أُمّته)) .

الضمير عائد إلى النبيّ والرسول لأنه الواسطة بين الأُمّة وبين اللّـه (عزّ وجل) ، فيستحيل أن يكون في أُمّته من يكون أفضل عقلاً منه ، بل ويستحيل أن يوجد من هو مساوٍ له في العقل والفضل ، وذلك لاستحالة ترجيح المفضول على الأفضل ، أو ترجيح أحد المتساويين على الآخر .. وفيه مدح عظيـم للعقل والعقلاء ، حيث حكم أن التفاضل في الدرجة وامتياز الرسول في الدرجة على الأُمّة إنما كان بواسطة العقل ، ولذا كان خاتم المرسلين أشرف الخـلق أجمعين لرجحان عقله عليهم ، لولاه لما خلق السماوات والأرضيـن ، ولا الملائكة المقرّبين ، لأنه أول مخلوق من نور ربّ العالمين ، بل انّ عقله(صـلّى الله عليه وآله) هو نفسه النـور الإلٰهي ، ومنه استمدّ النور كلّ نبيّ وكلّ وصـيّ عندما كانوا في ديجور الإمكان ، كما تستمدّ الكواكب الضياء والنور من الشمس في مدلهمّات الليالي ، هذا إذا خفيت عن الحسّ واحتجبت عن الأبصـار ،

فاذا طلعت على المكونات، وتجلت ظاهرة للعيان قهر نورها جميع الأنوار وخفيت سائر الكواكب عن الأنظار.

ومن هنا يتجلّى لك السرّ ويظهر المكنون، فتعلم لماذا نسخت شريعته الغرّاء شرائع من سبق من الأنبياء، فانه(صلّى اللّه عليه وآله) عندما برز إلى عالم الوجود الإنساني وانتشر شرعه المجيد وفرقانه الكريم في أنحاء الأرض وكان فيه الغناء والكفاء، لم يعد لغيره من الشرائع مساغ، إذ كانت شريعته كافية وافية حيث جاءت بكلّ ما يحتاج إليه الإنسان، فكانت قاهرة لكل ما سبقها، ومهيمنة على كلّ ما تقدّم عليها.

وفي قول اللّه(عزّ وجل) :﴿قد جاءكم من اللّه نور وكتاب مبين﴾ (المائدة/الآية ١٥) ما يُعطي انّ النور هو محمد (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) لعطف الكتاب على النور. والعطف يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، ولا يصحّ من الحكيم المطلق عطف الشيء على نفسه، على أنه ورد في كثير من التفاسير تقرير هذا المعنى عند ذكر قوله تعالى:
﴿كمشكاة فيها مصباح ...﴾ (النور/الآية ٣٥).

وسأذكر لك حديثين من الدر المنثور كشاهد على هذا:
قال: أخرج الطبراني وابن عدي وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمر(رض) في قوله :﴿كمشكاة فيها مصباح ..﴾قال:
المشكاة: جوف محمد (ص)، والزجاجة: قلبه، والمصباح: النور الذي في قلبه، ﴿يوقد من شجرة مباركة﴾: الشجرة: إبراهيم، ﴿زيتونة لا شرقيّة ولا غربيّة﴾: لا يهوديّة ولا نصرانيّة، ثم قرأ :﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً وما كان من

المشركين﴾(آل عمران/ الآية ٦٧) .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن شمر بن عطيّة، قال:

جاء ابن عبّاس إلى كعب الأخبار فقال: حدّثني عن قول اللّه: ﴿اللّه نور السماوات والأرض مثل نوره ...﴾؟ قال: مثل نور محمد (ص) كمشكاة، قال: المشكاة: الكوّة ضربها مثلاً لنفسه، فيها مصباح والمصباح قلبه، في زجاجة والزجاجة صدره، كأنها كوكب دُرّيّ شبّه صدر محمد (ص) بالكوكب الدُرّيّ، ثم رجع إلى المصباح إلى قلبه فقال: ﴿يُوقد من شجرة مباركة زيتونة يكاد زيتها يُضيء﴾ قال: يكاد محمد (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) يُبيّن للناس ولو لم يتكلّم أنه نبي، كما يكاد ذلك الزيت أنه يُضيء ولو لم تمسسه نار.

إنتهى.

وفي تفسير فرات مسنداً عن جابر بن يزيد عن أبي جعفر(عليه السلام) قال: قال رسول اللّه(صلّى اللّه عليه وآله):

((لمّا أُسري بي إلى السماء قال لي العزيز: ﴿آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربّه﴾ قلت: ﴿والمؤمنون﴾ قال: صدقت، يا محمد عليك السلام من خلّفت لأُمّتك من بعدك؟ قلت: خيرها لأهلها، قال: عليّ بن أبي طالب؟ قلت: نعم يا رب، قال: يا محمد إني إطّلعت للأرض إطّلاعة فاخترتك منها واشتققت لك إسماً من أسمائي لا أُذكر في مكان إلا ذُكرت معي، فأنا المحمود وأنت محمد، ثم اطّلعت ثانياً إطّلاعة فاخترت عليّاً، واشتققت له إسماً من أسمائي، فأنا الأعلى وهو عليّ، يا محمد خلقتك وعليّاً وفاطمة والحسن والحسين أشباح نور من نوري، وعرضت ولايتكم

على السماوات وأهلها فمن قبل ولا يتكم كان عندي من المقرّبين، ومن جحدها كان عندي من الكفّار، يا محمد لو أنّ عبداً عبدني حتى ينقطع ويصير كالشنّ البالي، ثم أتاني جاحداً لولايتكم ما غفرت له حتى يقرّ بولايتكم، يا محمد أتحبّ أن تراهم ؟ قلتُ: نعم يا رب، قال: التفت عن يمين العرش، فالتفتّ فاذا أنا بالأشباح: عليّ وفاطمة والحسن والحسين والأئمة كلّهم حتى بلغ المهدي (عليهم السلام) في ضحضاح من نور، قيام يصلّون، والمهدي في وسطهم كأنه كوكب دريّ، فقال: يا محمد هؤلاء الحجج، وهذا الثائر من عترتك، فوعزّتي وجلالي انه حجّة واجبة لأوليائي، منتقم من أعدائي)) .

قوله: ((وما يضمر النبيّ في نفسه)) أي: من نيّة صادقة وتفكّر صحيح ونصح كامل، أو رأي صواب، أو أيّ شيء كان من العلوم والأحكام والعقائد بل وكلّ قول وفعل (أفضل من اجتهاد المجتهدين) وذلك لسببين:

(أولهما): انّ النبيّ مؤيّد من اللّه تعالى، فلا يجرأ الشيطان على الدنوّ منه فلا يخطر في باله غير الحق.

(وثانيهما): إنه إلهام من اللّه يلقي في روعه فلا يكون إلا صواباً.

ووجه ثالث: وهو أن عقله أفضل وأرجح من عقولهم لأنّ عقله ـ لشدّة اتّصاله بنور الحق (جلّ شأنه) ـ كمال محض لا نقص فيه قطعاً، ونور صرف لا يشوبه ظلمة أصلاً، فهو مستغرق في توجهه إلى اللّه، فانٍ في ذاته حتى لقد امتحت هويّته من هذا العالم الفاني وتعلّقت بالملكوت الأعلى، ولذلك كان له أبلغ التأثير في جميع المكوّنات لا فرق بين مجرّداتها ومحسوساتها، كما في الحديث القدسي:

((يا عبدي أنا حيّ لا أموت أطعني أجعلك مثلي حيّاً لا تموت، يا عبدي أنا أقول للشيء كن فيكون أطعني أجعلك مثلي تقل للشيء كن فيكون)) .

وإليه الإشارة في قوله(عزّ وجل) له(صلّى اللّه عليه وآله) ليلة المعراج : ((وما يتقرّب عبدي إليّ بشيء أحبّ إليّ مما افترضت عليه، وإنه ليتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته)) .

ولأجل ذلك الإستغراق الكلّي والإتصال التام يظنّ من لا معرفة له ولا تمييز إنهما متّحدان، غير أنّ أصحاب العقول السليمة وذوي المعارف الصحيحة يعرفون ويعتقدون أنّ اللّه سبحانه خالق وهذا مخلوق، واللّه تعالى رازق وهذا مرزوق، فالمغايرة متحققة والفرق ظاهر، وانّ كمال النبيّ مستمدّ من كمال اللّه(عزّ وجل)، لأنه خليفته الناطق عنه، ورسوله الدالّ عليه.

وهذه هي المرتبة العظمى من مراتب العقل، والدرجة العليا من مدارج الكمال، وهي مرتبة حقّ اليقين، وهو فيما دون تلك المرتبة ـ أعني مرتبة علم اليقين، مرتبة عين اليقين ـ يشاهد المعقولات كلّها، مشاهدة عيان بحيث لا يحجب عنه شيء منها إلا ما شاء اللّه.

هذا حال عقله(صلّى اللّه عليه وآله) وحال عقل أوصيائه(عليهم السلام) إلا أنّ بين عقله وعقولهم تفاوتاً دقيقاً لا يعلمه إلا اللّه سبحانه، فانّ عقولهم مستمدّة من عقله، وعقله(صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) مستمدّ من اللّه تعالى مباشرة، كما يشير إليه قول أمير المؤمنين(عليه السلام) للطبيب اليوناني عندما

سأله : أمثلك كان محمد ؟ فقال (عليه السلام) :

((وهل علمي إلا من علمه ؟ وعقلي إلا من عقله ؟ وقوّتي إلا من قوّته)) ؟ .

وأما عقل غيرهم ممن تمسّك بذيل عصمتهم ، فهو وإن كان كمالاً ونوراً في حدّ ذاته ، إلا أنه استعداد محض ، وظلمة صرف بالنظر إلى عقلهم ، ولأن غاية جهد المتمسّك بهم ونهاية سعيه تحصيل تلك المعقولات على قدر الوسع من مباديها بالإجتهاد وإعمال النظر ، وهو في هذه المرتبة بمنزلة من استدلّ على وجود النار بمشاهدة الدخّان ، وبين هاتين المرتبتين مسافة شاسعة بالغة في البعد كما لا يخفى على العارفين .

وإذا كان عقله (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) أكمل وأفضل من عقول المجتهدين فانّ إدراكاته وتعقّلاته أفضل وأتمّ من اجتهادات المجتهدين وتعقّلاتهم ، ولهذا يحكم بأنّ عقل الأعلم وإدراكاته أتمّ وأفضل من عقل العالم وكذا عقل العالم وإدراكاته أتمّ وأفضل مما عند الجاهل ، بل لا نسبة هٰهنا في الحقيقة .

وقول الإمام الصادق (عليه السلام) :

((أعرفوا منازل الناس على قدر رواياتهم عنّا)) يساعد على ما ذكرناه .

((وما أدّى العبد فرائض اللّه حتى عقل عنه)) أي لا يمكن للعبد أداء الفرائض كما ينبغي إلا بأن يعقل ويعلم من جهة مأخوذة من اللّه تعالى بالوحي ، وبأن يلهمه اللّه معرفته ، أو بأن يعطيه اللّه عقلاً يسلك به سبيل النجاة ، وفي نسخ المحاسن للبرقي : ((حتى عقل عنه)) أي لا يعمل فريضة حتى يعتقد أنها من اللّه ويعلم أن اللّه أراد تلك منه ، ويعلم آداب إيقاعها ،

ولعل المراد من العقل الأخذ ، من قولك: إعتقلت الرجل إذا أخذته وحبسته فيكون المعنى أخذ العلم عن اللّه وفهم حقائق الأشياء من قبله سبحانه بلا واسطة بشر ولا تقليد أحد ،كما للأنبياء (عليهم السلام) ، أو ببركة متابعة الأنبياء كما للعلماء .

ويحتمل أن يكون المراد أعمّ من ذلك، أي يعقل ويعرف ما يلزمه معرفته ، فمن إبتدائيّة ، على التقديرين ، ويحتمل على بعد أن تكون تبعيضيّة ، أي عقل من صفاته وعظمته ما يليق بفهمه ويناسب قابليّته واستعداده .

واعلم انّ أداء الفرائض لا يتصوّر بدون معرفتها المتوقّفة على معرفة اللّه تعالى ، ومعرفته سبحانه لا تتصوّر بدون العقل ، فالعقل هو الأصل لجميع ذلك .

عِبادَةُ العاقِلِ

((ولا بلغ جميع العابدين)) أي مجموعهم من حيث المجموع ، أو كلّ واحد منهم (في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل) أي في فضل عباداته ، أو في عقله عن اللّه وأحكامه وعلمه بهما ، لأن العقل أصل للعبادة وروح لها ، فانّ به يحصل الخوف والخشية والخضوع الموجبة لصعودها إلى محل القبول ، وانحطاط الفرع عن الأصل موجب لسقوط الدرجة ، فكلّما كان العقل وافراً كان الثواب على العبادة وافراً ، والعكس بالعكس ، وهذا بيّن لا سترة فيه .

ولقد نقل في الكافي وغيره :

إنّ رجلاً من بني إسرائيل كان يعبد اللّه في جزيرة من جزائر البحر ، خضراء نضرة ، كثيرة الشجر ، ظاهرة الماء ، وانّ ملكاً من الملائكة مرّ به ، فقال : يا ربّ أرني ثواب عبدك هذا ، فأراه اللّه تعالى ذلك ، فاستقلّه الملك فأوحى

اللّه تعالى إليه: أن أصحبه، فأتاه الملك في صورة إنسيّ، فقال له: من أنت؟ قال: أنا رجل عابد بلغني مكانك وعبادتك في هذا المكان، فأتيتك لأعبد اللّه معك، فكان معه يومه ذلك، فلمّا أصبح قال له الملك: إنّ مكانك لنزهة، وما يصلح إلا للعبادة، فقال له العابد: إنّ لمكاننا هذا عيباً، فقال له: وما هو؟ قال: ليس لربّنا بهيمة، فلو كان له حمار رعيناه في هذا الموضع فانّ هذا الحشيش يضيع، فقال له الملك: وما لربّك حمار؟ فقال: لو كان له حمار ما كان يضيع مثل هذا الحشيش، فأوحى اللّه إلى الملك: إنما أثيبه على قدر عقله.

((والعقلاء هم أُولوا الألباب)) تعريف الخبر بالألف واللام مع التوسيط بضمير الفصل تنبيه على التخصيص والتأكيد، كما في قولهم: (الكرم هو التقوى) أي: لا كرم إلا التقوى، إذ المقصود حصر العقلاء بأنهم ليسوا إلا أُولي الألباب الذين مدحهم اللّه في الكثير من الآيات، وهم المملوؤون دراية ونباهة وحكمة.

كلام للصدر الشيرازي

ويجدر بنا أن نذكر كلاماً للصدر الشيرازي (قدّس سرّه) في شرح هذا الحديث، قال:

إعلم أنه ثبت عند الحكماء الكاملين، والعرفاء المحققين أنّ للعقل مراتب، وأعلى مراتبه هو الذي يقال له: العقل البسيط والعقل الإجمالي والعقل القرآني، وبعد مرتبته هو العقل النفساني والعقل التفصيلي والعقل الفرقاني، وهو أيضاً عقل بالفعل، وبعد مرتبتهما مراتب: العقل بالقوة، والعقل بالملكة، والعقل المستفاد.

والفرق بين الأوليين: انّ الأول حقيقة واحدة موجودة بوجود واحد

عقليّ، وهو ـ وحدته وبساطته ـ كلّ العقول والمعقولات والعلوم والمعلومات، وهو مبدأ يصدر عنه مفصّل المعقولات، وعلمه تعالى بالموجودات السابقة عليها من هذا القبيل لئلا يلزم كثرة في ذاته وعلمه الذي هو عين ذاته، وهو موهبة من مواهب اللّه لخواصّ عباده ليس للكسب إليه سبيل.

وأما العقل الثاني فهو تلك المعقولات المفصّلة المستمدّة من ذلك العقل البسيط القرآني.

ونسبة الأول إلى الثاني كنسبة البدن إلى الشجرة، والكيمياء إلى الدنانير.

وقد يكون المعقول الواحد فينا متضمّناً لمعقولات كثيرة كالمحدود بالقياس إلى حدّه التفصيلي، وقد يكون المعقول البسيط عندنا علّة للمعقولات الكثيرة المفصّلة كالفقيه ـ ذي الملكة الفقهيّة ـ إذا كان بينه وبين رجل مناظرة، فاذا تكلّم ذلك الرجل بكلام كثير خطر بباله جواب مسائله جملة، ثم أخذ في الجواب يفصّله شيئاً فشيئاً على الترتيب إلى أن يملأ كتاباً ولم تكن تلك العلوم المفصّلة حاضرة في ذهنه. ولكنّ الحاضر فيه أولا أمر بسيط هو مبدأ تلك المفصّلات، فهذا مثال العقل البسيط، إلا أن العقل البسيط أتمّ بساطة وأشدّ تجريداً، وهو نور من أنوار اللّه يختصّ به الأنبياء (عليهم السلام) وبعض الأولياء، فهذا معنى قوله: ((وما يضمر النبيّ في نفسه أفضل من اجتهاد المجتهدين)) لأنّ غاية سعيهم واجتهادهم هي تحصيل العلوم التفصيليّة على سبيل النظر والإستدلال، وأين هذا من ذاك.

وفي قوله تعالى:

﴿سنُريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق﴾

(حم/السجدة/الآية ٥٣)

إشارة إلى طريق المجتهدين المستدلّين الذين يعرفون الحقّ بالخلق وبملاحظة آيات الآفاق والأنفس يستدلّون على وجوده تعالى .

وقوله تعالى :

﴿أولم يكف بربّك أنه على كلّ شيء شهيد﴾ (حم السجدة/ الآية ٥٣)

إشارة إلى طريق النبيّ (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) ، فانه بلغ إلى مقام فيه يرى الحقّ به ، وبه يستشهد على كلّ شيء .

وفي كلام سيّد الأولياء أمير المؤمنين (عليه السلام) :

((ما رأيتُ شيئاً إلا ورأيتُ اللّه فيه)) .

وقال بعض الأولياء :

((رأيتُ ربّي بربّي ، ولولا ربّي ما رأيتُ ربّي)) .

وقوله (صلّى اللّه عليه وآله) :

((والعقلاء هم أُولوا الألباب ...)) يعني انّ العقل المذكور هٰهنا ليس ما يتعارفه الجمهور عندهم فيقولون لمن له كياسة في أمور الدنيا : إنه عاقل ، ولا المراد به الغريزة التي يتميّز بها الإنسان عن البهائم ، ولا المذكور في علم الأخلاق ، بل المراد منه ما يُستفاد من قوله تعالى :﴿إنما يتذكّر أُولوا الألباب﴾ فعلم منه أن العقلاء هم المخصوصون بأنهم أهل الذكر ، أي أهل العلم والعرفان ، كما في قوله تعالى :﴿فاسألوا أهل الذكر إنْ كنتم لا تعلمون﴾ (الأنبياء/ الآية ٧) ، وهم الراسخون في العلم كما دلّ عليه قوله :﴿والراسخون في العلم يقولون آمنّا به كلّ من عند ربّنا وما يذكّر إلا أُولوا الألباب﴾ (آل عمران/ الآية ٧) ، وهم الحكماء الإلٰهيّون بقوله تعالى :﴿ومنْ يُؤت الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً وما يذكّر إلا أُولوا الألباب﴾ (البقرة/ الآية ٢٦٩)

وبالجملة المراد بالعاقل هذا الموصوف بجميع ما وصف الله به أولي الألباب، وذلك لا يكون إلا للعالم الحكيم الراسخ في العلم الكامل في الحكمة والإيمان، فالعقل الذي هو فيه آخر العقول المذكورة في معرفة النفس، والله أعلم بالصواب، إنتهى.

شرح كلمات لأمير المؤمنين عليه السلام

كلمات لأمير المؤمنين (عليه السلام) وردت في نهج البلاغة، قال (عليه السلام):

((لا مال أعود من العقل، ولا وحدة أوحش من العُجب، ولا عقل كالتدبير، ولا كرم كالتقوى، ولا قرين كحُسن الخلق، ولا ميراث كالأدب ولا قائد كالتوفيق، ولا تجارة كالعمل الصالح، ولا ربح كالثواب، ولا ورع كالوقوف عند الشُبهة، ولا زُهد كالزهد في الحرام، ولا علم كالتفكّر، ولا عبادة كأداء الفرائض، ولا إيمان كالحياء والصبر، ولا حسب كالتواضع، ولا شرف كالعلم، ولا مظاهرة أقوى من المشاورة)).

أشار (عليه السلام) إلى سبع عشرة خصلة من مجامع الخير، وطرق النجاح في الدنيا والآخرة، و((لا)) في هذه الجمل نافية للجنس، وما بعدها إسمها مبنيّ على الفتح لتضمّنها معنى ((من)) الجنسيّة، وما بعدها خبرها...

العقل والمال

وأول هذه الخصال قوله (عليه السلام):

((لا مال أعود من العقل))، المراد بالمال هٰهنا: الوسيلة التي يستطيع الإنسان ـ بواسطتها ـ الوصول إلى غايته، وسمّي المال مالا لأنه يميل من هذا إلى ذاك، ومن ذاك إلى هذا، و((أعْوَدُ)) أي أعْوَدُ بالنفع على صاحبه، وإنما كان العقل أعْوَد لأنّ فائدة المال أن يصرف لتحصيل الحوائج، والوصول إلى الراحة والأمن في العاجل والآجل، وهذه المقاصد

لا تتيسّر إلا بمعونة العقل، فاذا كان صاحب المال سفيها فانه يصرف ماله فيما يضرّه ويخلّ براحته وسعادته، فيعود فقيراً، والعاقل إن لم يكن له مال فقد يستطيع اكتساب المال بعقله وحسن إدارته، بل يستطيع أن يعيش بين الناس بعقله وإن كان معدماً قليل المال، كما قال تعالى:

يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف (البقرة/الآية ٢٧٣).

واستعار لفظ المال للعقل باعتبار أنّ به غنى النفس، وهو رأس مالها الذي يكتسب به الأرباح الباقية والمحامد الدائمة والكمالات الإنسانيّة والمال لا يكون كمالاً إلا إذا أنفقه صاحبه في الوجوه المشروعة والمطالب المهمّة واستجلاب المحامد والمنافع، ودفع المضار.

قال الشاعر:

المال مال المرء ما بلغت به الشهوات أو دفعت به الأحداث
ما كان منه فاضلاً عن قوته فليعلمنّ بأنه ميراث

وقال آخر:

غنى النفس ما يغنيك عن سدّ خلّة
فان زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقرا

ولمّا كان بين المالين ــ أعني: المال الذي هو الحُطام الدنيوي والمال الذي هو العقل ــ من التفاوت في الشرف ما علمت لا جرم كان العقل أعود بالنفع من المال.

وكلّ ذي حدس صحيح ــ عالماً كان أم جاهلاً ــ يحسّ ويلمس مدى النعمة في العقل وكثرة المنافع فيه، يحسّها في طعامه وشرابه، يحسّها في ملبسه ومسكنه، يحسّها في نومه ويقظته، يحسّها في جيئته وذهابه، يحسّها في كلّ خطوة من خطواته، وخطرة من خطراته، فمن أعطاني هذا القلم الذي

أكتب به، والقرطاس الذي أسطـــر عليه، والكتب التي أُطالعها، والكلمات التي أصوغها، والمعاني التي أبتـكرها، ومصابيح الكهرباء التي أتحرّك على ضوئـــها، وغير ذلك مما لا يمكن حصره، ولا يستطاع إحصاؤه.. أليس هـــذا كلّه بتوفيق من واهب العقل، وانّ أثر العقل في الصناعة قد بلغ القمر وما فوقه من الكواكب.

وبكلمة موجزة: لولا العقل لم يكن الإنسان إنساناً، فالعقل رســـــول الحقّ بالحقّ إلى الخلق، وأنّى أتجه الإنسان بعقله حظي بالخـــــــوارق والمعجزات، وأنّى ألتفت شـــاهد من تأثيره العجب العجاب، فأيّ مـــال أم أيّ شيء من الأشياء مهما عظم خطره يساوي فضل العقل وعظمته إذا استعـمل في رُشده، وصرف إلى الخير لا إلى الشرّ، وانّ من أخطأه العـــقل ظهـــرت حيوانيّته، بل ليس من شكّ أنّ الحيوان الأعجم يكون خيرا منه وأشـــرف، ومن انحرف بعقله إلى ناحية الشرّ عدّ من الوحوش المفترسة.

وقد تكرر مثل هذا في كلامه(عليه السلام) وإن اختلف التعبير، فالمعنى واحد، كقوله: ((لا غنى كالعقل، ولا فقر كالجهل)).

وقوله لولده الحسن(عليهما السلام):

((إنّ أغنى الغنى العقل، وأفقر الفقر الحمق)).

فانه في هذين المقامين ذكر مع فضيلة العقل ما يقابله من رذيلـــــة الجهل والحمق، ولعلّه يقصد من((العقل)) ما يسمّى العقل بالملكة، وهـــو القوّة الحاصلة من الحسّيات والبديهيّات والتجارب، وبهذه القوّة يستطيـــع الإنسان التوصّل إلى العلوم النظريّة، فيكون تعقّله مضيئاً يوضّح له كافة جوانب حياته وجميع نواحي حاجياته، فيهديه في كلّ شأن من الشؤون إلى ما هـــو صلاحه، ويحفظه من ارتكاب ما يضرّه، ولا يحتاج بعد هذا إلى من يكفيـــه

ويحافظ عليه ويكون قيّماً عليه ووليّ أمر له.

ومن نواحي الحياة درك لزوم التعلّم عند العالم فيما يجهله، والرجوع إلى المشير إذا كان الأمر عليه مبهما، وليس المراد من غنى العقل التفرّد بكلّ شيء والاستغناء عن التعليم والاستشارة، كيف؟ وقد أمر الله نبيّه بمشاورة أصحابه، حيث قال:

وشاورهم في الأمر فاذا عزمت فتوكّل على الله

(آل عمران/الآية ١٥٩).

هذا مع كمال عقله وجودة رأيه واستغنائه عن الرجوع إلى الغير.

ومن هنا يظهر أن أكبر الفقر هو الحمق، لأن الأحمق لجهله المطبق وعدم تعقّله ليس لديه ما يحفّزه إلى الرجوع إلى العالم فيما يجهل، ولا إلى المشير فيما لا يفهم ولا يعقل.

والحمق هو رذيلة الغباوة وطرف التفريط في الشذوذ عن العقل، فهو سبب الفقر ـ أعني بالفقر: الخلوّ من الكمالات خصوصاً النفسانيّة التي بها الغنى التام ـ بل هو إذن الفقر الأكبر.

ولأنّ العقل مصدر العلم والمال والجاه وكلّ خير الدنيا والآخرة، فلا جدوى من مال ولا سلطان إذا لم يكن عقل.

ولقد قال الإمام الصادق(عليه السلام):

((العقل ما عبد به الرحمان، واكتسب به الجنان. فقيل له: والذي عند معاوية؟ قال: تلك النكراء)) أي المكر والخديعة، تلك الشيطنة.

وقال أمير المؤمنين(عليه السلام):

((لولا أنّ المكر والخديعة في النار لكنت أدهى العرب)) .

والعقل يقابله الجهل أيضاً ، وكذلك يقابل الجهل العلم ، فالجهل أصل كلّ رذيلة ، فانه يلحق صاحبه بالحيوان الأعجم ، بل الحيوان الأعجم خير منه وأشرف، كما قال عزّ وجل :

*لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يُبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أُولئك كالأنعام بل هم أضلّ أُولئك هم الغافلون * .
(الأعراف/ الآية ١٧٩) .

وفي الكافي عن الرضا (عليه السلام) :

((صديق كلّ امرئ عقله وعدوّه جهله)) .

وعن النبيّ (صلّى اللّه عليه وآله :

((إذا بلغكم عن رجل حسن الحال فانظروا في حسن عقله ، فانما يجازى بعقله)) .

وعنه (صلّى اللّه عليه وآله) أيضاً :

((إذا رأيتم الرجل كثير الصلاة ، كثير الصيام ، فلا تباهوا به حتى تنظروا كيف عقله)) .

وقال (صلّى اللّه عليه وآله) أيضاً:

((يا علي لا فقر أشدّ من الجهل)) .

العُجْب

(الثانية) : ((ولا وحدة أوحش منْ العجب)) ، جعل الوحدة من جنس العجب باعتبار ما يستلزمانه من الوحشة ، لأن العجب يوجب الترفّع وتوقّع الإحترام من الغير ، فهو رذيلة الكبر ، وهو ضدّ التواضع ، فانّ المتواضع

لمّا استلزم بتواضعه أُنس الخلق به وشدّه ميلهم إليه ؟ كان ضدّه مستلزماً لنفورهم وتوحّشهم التام منه ، فالعجب بنفسه يتخيّل انه فى مقام لا يرى لغيره الحق فيه فيترفّع على الناس ، فتمقته الناس لأجل ذلك ، وتنفر عنه فيبتلى بالوحدة وتعظم وحشته ، فالعجب هو أوحش الوحشة ، وفي وصيّته للحسن ابنه(عليهما السلام) :

((واعلم أنّ الإعجاب ضدّ الصواب وآفة الألباب)) .

وذلك أنّ الصواب هو سلوك طريق اللّه باستجماع مكارم الأخلاق ، والإعجاب من رذائل الأخلاق ، فهو مضادّ للصواب ، مضادّة الفضيلة للرذيلة ، فهو آفة العقول وعمى البصائر ، وهو أعضل داء يصيب العاقل وأعظم مهلك له ، كما أشار إليه الرسول الأعظم(صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) بقوله :

((ثلاث مهلكات : شُحّ مطاع ، وهوى متّبع ، وإعجاب المرء بنفسه)) .

وقال أمير المؤمنين(عليه السلام) :

((إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله)) .

لا عقل كالتدبير

(الثالثة) : ((ولا عقل كالتدبير)) ، التدبير هو إستخراج الآراء المصلحيّة في الأمور ، ولا ريب أنّ التدبير هو أفضل سجايا العقلاء ، لأن نظام حياة الإنسان لا يتمّ إلا به ، وكأنه(عليه السلام) يريد بالعقل هٰهنا تصرّف العقل العملي ، فأطلقه عليه مجازاً من باب تسمية السبب باسم المسبب .

لا كرم كالتقوى

(الرابعة) : ((ولا كرم كالتقوى)) ، المفهوم من الكرم بذل ما ينبغي بذله ، والتقوى كأنه مأخوذ من الإتّقاء وهو الحذر ، فلو قيل : (إتّقوا اللّه) فالمعنى : إحذروه فانه شديد العقاب ، أو انه مأخوذ من الوقاية ، وهو التستّر عن الشيء المؤذي ، فلو قيل : إتّقوا الذنوب ، فالمعنى : إستروها بالتوبة

والاستغفار، وقد يكون مأخوذاً من القوّة، وهو الاقتدار على فعل الخير، ونحن نطلب منه تعالى أن يقوّينا على ذلك، وعلى كلّ حال، فانّ تقوى اللّه خشيته وطاعته، ولمّا كان من لوازم التقوى الزهد في الدنيا والاعراض عن متاعها، كان ذلك في الحقيقة بذلاً لجميعها، وإذا كان بذل بعض مقتنياتها يسعى كرها، فبذلها بأسرها أولى بأن يكون كرماً، بل هو الكرم ليس يشبهه كرم، وإذا حملنا الكرم على معنى الرفعة في الشرف والجاه، فذلك أعظم وأعظم، لاسيّما وانّ اللّه تعالى يقول:

﴿إنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم﴾ (الحجرات/الآية ١٢).

حُسْن الخُلُق

(الخامسة): ((ولا قرين كحُسْن الخلق))، حُسْن الخلق عبارة عن حُسْن السيرة ولين الجانب في معاملة الناس ومعاشرتهم وما يوجب ألفة الناس له وأنسهم به، وجلب قلوبهم إلى محبّته، فلا أرفق ولا أوفق منه، وهو خير قرين وأفضل صاحب، وحسبك بشرف هذا الخلق وعظم خطر هذه السجيّة انها خلق النبيّ الأعظم (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) وقد مدحه اللّه (عزّ وجل) بقوله: ﴿وإنّك لعلى خُلُق عظيم﴾ (القلم/الآية ٤).

وقد قال (صلّى اللّه عليه وآله):

((أكثر ما تلج به أُمّتي الجنّة حسن الخلق)).

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): ((أكرم الحسب حُسْن الخلق)).

وقال الصادق (عليه السلام):

((إنّ الخُلق الحسن يميث الخطيئة كما تميث النار الجليد)).

وقال (عليه السلام):

((البِرّ وحُسْن الخُلْق يعمران الديار ويزيدان في الأعمار)).

لا ميراث كالأدب

(السادسة) : ((ولا ميراث كالأدب)) ؛ الأدب هو التحلّي بالمزايا الحسنة والصفات الفاضلة، ومكارم الأخلاق، وتجنّب الرذائل وكلّ ما يخلّ بالعدالة ويؤدّي إلى عدم الاعتبار، فالأدب سبب للتوفيق إلى اكتساب الثقة والوصول إلى المقاصد والمآرب، وإنما عدّه ميراثاً لأنه قد يكون في البيت، وقد يكون في القبيلة، وقد يكون في الرجل الواحد، والرجل في الغالب يتخلّق بأخلاق آبائه وأجداده، وربما اكتسب ذلك من أصدقائه ومعاشريه، فيرثه منهم ويورثه أولاده لأن الأصل جذّاب، وإليه الإشارة في قول الإمام الحسين (عليه السلام) يوم الطف:

((يا أهل العراق إن لم يكن لكم دين فكونوا أحراراً في دنياكم إن كنتم عُرباً كما تزعمون)).

فقد نسب الحرّية التي هي كرم الأخلاق والصدق والغيرة إلى العرب، حيث من شيمة العربي أن يكون كذلك، فهو يأمرهم بالرجوع إلى أحسابهم، فالأدب أفضل من كلّ موروث، وأنفع من جميع المقتنيات، وتكلّم غلام في حضرة المأمون فأعجبه كلامه فقال له: إبن من أنت؟ فقال: إبن الأدب يا أمير المؤمنين، فقال: نعم النسب، فاذا ضمّت المعرفة إليه كانت النعمة الكبرى.

لا قائد كالتوفيق

(السابعة) : ((ولا قائد كالتوفيق)) ؛ التوفيق هو النجاح في الأمور وسهولة الوصول إلى المطالب والغايات، وهذا لا يتمّ حقيقة إلا بالاعتماد على اللّه (عزّ وجل) والتوكّل عليه، فهداية الطريق والعناية بالطالب من اللّه تعالى الذي لا حول ولا قوّة إلا به ومنه، لقوله سبحانه:

ومن يتوكّل على اللّه فهو حسبه (الطلاق/الآية ٣).

وإذا كان توفيق ونجاح من غير توكّل فذلك استدراج وهذا مذموم، وإذا كان التوفيق باعثاً على الارتياح وموجباً للسرور من حيث الوصول إلى

المقاصد فهو أحسن قائد وأفضل دليل.

العمل الصالح

(الثامنة): ((ولا تجارة كالعمل الصالح)) استعار لفظ التجارة للعمل الصالح كونه مؤدّياً للخير الذي هو الثواب العظيم في الدار الآخرة، كالتجارة المستلزمة للأرباح في الدنيا، والتاجر لا يحمد تجارته إلا إذا كان رابحاً فيها، وكلّما عظم ربحه عظم تمسّكه بتجارته، والأرباح الدنيويّة مهما عظمت وكثرت فانها ليست بشيء، لأنها إما أن تفنى وتزول وبزوالها الحسرة والأسف، أو يموت صاحبها وتبقى من بعده لغيره، فتكون الحسرة أعظم والأسف أكثر، وما أحسن قول القائل:

أموالنا لذوي الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نبنيها

أما تجارة الآخرة التي هي العمل الصالح الذي يقوم به صاحبه ليكون ذخيرة له في المعاد، في يوم الفقر والفاقة، فهي هي التجارة الرابحة بالمعنى الصحيح لأنها تجارة لن تبور، وانّ ما يربحه في هذه التجارة يبقى له في الدارين: أما في الدنيا فيكتسب به المودّة والمحبّة في الناس، وكذلك يبقى له الذكر الحسن بعد الموت إلى ما شاء الله، ويكون قدوة ومثالاً لمن يأتي بعده في غابر الأزمان.

وأما في الآخرة يلازم صاحبه أبداً في القبر والحشر وعند الحساب، ويوقيه الأهوال، ويذلل له الصعاب، كما في حديث قيس بن عاصم المنقري حين سأل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) موعظة، فقال (عليه السلام) من جملة حديثه:

وانه لا بدّ لك يا قيس من قرين يدفن معك وهو حيّ وتدفن معه وأنت ميّت، فان كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، ثم لا يحشر إلا معك ولا

تبعث إلا معه، ولا تسأل إلا عنه، فلا تجعله إلا صالحاً، فانه إن صلح أنست به، وإن فسد لا تستوحش إلا منه وهو فعلك.

فاذن تجارة الله بالعمل الصالح هي أربح وأنفع وأنفس وأبقى من كلّ تجارة، بل هي التجارة الحقّة التي تعود على أهلها بالأرباح الطائلة والمكاسب العظيمة.

يقول الله (عزّ وجل) :

﴿إليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه﴾ (فاطر/الآية ١٠).

والمراد بالكلم الطيّب ما أفاد معنى طيّباً، وليس هو مجرّد لفظ، فانّ من اللفظ ما هو مهمل ولا معنى له، وإن كان له معنى فليس بذي حقيقة كما قال تعالى : ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾ (آل عمران/الآية ١٦٧) وقال أيضاً: ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾ (الفتح/الآية ١١).

وإعطاء الكلم صفة الطيّب مما يدلّ على أنّه أراد به الاعتقادات الحقّة التي يسعد بها الإنسان في الدار الآخرة، فانّ الكلام عمل لساني، والاعتقاد عمل قلبي، وكلاهما يثاب عليه الإنسان أو يعاقب، وأجلّها كلمة التوحيد التي هي الأساس لكلّ قول طيّب وكلّ عمل صالح، والصعود هو الحركة إلى فوق، وهو العروج أيضاً، فلو لم يكن الاعتقاد والقول عملاً ذا مقدار لم يكن له صعود، لأن العرض لا يتحرّك، وقد علمت أن فعل الله تعالى كلامه، قال تعالى :

﴿إنّ الله يُبشّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم﴾
(آل عمران/الآية ٤٥).

وقال تعالى أيضاً :

﴿ضرب الله مثلاً كلمة طيّبة كشجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعها في السماء

تُؤتي أُكلها كلّ حين باذن ربها﴾ (إبراهيم/الآيتان ٢٤و٢٥) .

إذ لا بدّ وأن يكون بين المشبّه والمشبّه به نوع من المشاكلة ، وتسمية الاعتقاد قولاً وكلمة أمر متعارف.

وقد فسّروا صعود الكلم الطيّب إليه بقبوله تعالى له ، وهو من لوازم المعنى .

وإذا كان الاعتقاد والإيمان صادقاً فلابدّ وأن يصدّقه العمل ، وهو مطابقة القول للفعل ، وإلا فهي دعوى لا دليل عليها .

فالعمل الجوارحي فرع على العمل القلبي وقرين لازم لا ينفكّ عنه ، وكلّما تكرر العمل ازداد الاعتقاد رسوخاً وجلاء وقوى تأثيره ، فالعمل الصالح الذي طبع عليه بذل العبوديّة والإخلاص لوجهه الكريم هو الحريّ بالقبول ، ويعين الاعتقاد الحق في ترتيب أثره عليه ، وهو الصعود إليه تعالى ، وهو المعنيّ إليه بالرفع ، فالعمل الصالح يرفع الكلم الطيّب.

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم ، قال :

كلمة الإخلاص والإقرار بما جاء من عند الله من الفرائض ، والولاية ترفع العمل الصالح .

وعن الصادق (عليه السلام) أنه قال :

((الكلم الطيّب هو قول المؤمن : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، عليّ وليّ الله وخليفة رسوله .

وقال : والعمل الصالح : الاعتقاد بالقلب إنّ هذا هو الحقّ من عند الله تعالى لا شكّ فيه من ربّ العالمين .

وفي رواية أبي الجارود ، عن أبي جعفر (عليه السلام) ، قال :

((قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) : إنّ لكلّ قول مصداقاً من عمل يُصدّقه أو يُكذّبه، فاذا قال ابن آدم وصدّق قوله بعمله رفع قوله بعمله إلى اللّه، وإذا قال وخالف قوله عمله ردّ قوله على عمله الخبيث وهوى في النار)).

(التاسعة) : ((ولا ربح كالثواب)) ؛ وهذا ظاهر.

الوقوف عند الشبهة

(العاشرة): ((ولا ورع كالوقوف عند الشبهة)) ؛ الورع : هو التوقّي عن ارتكاب الفواحش، والتجنّب عن كلّ ما يضرّ بطهارة النفس ويُوجب العقوبة من اللّه تعالى، وانّ الوقوف عمّا اشتبه من الأمور في حلّه وحرمته أبلغ في التحرّز عن الوقوع في الحرام، وانظر قوله (عليه السلام) في كتابه لعثمان بن حنيف:

((فما اشتبه عليك علمه فألفظه، وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه))

يريد : انّ الذي لا تعرف الوجه في كسبه ولا تدري أحلال هو أم حرام فدعه وابتعد عنه فلعلّه أن يكون حراماً فيلطّخك بمعصية.

الزهد في الحرام

(الحادية عشرة) : ((ولا زهد كالزهد في الحرام)) ؛ والزهد : هو أن يجعل قلبه حيّاً وميّتاً في آنٍ واحد، أما حياته فهو أن يشاهد بعين قلبه أحوال الآخرة ولا يغفل عنها، وأما موته فهو أن يقتل شهوته بالاعراض عن الدنيا وملذّاتها ويعرض عنها كليّاً.

وبعبارة أُخرى : هو الإعراض عن الدنيا وزهراتها وقطع الإلتفات إلى ما سوى اللّه تعالى.

وبتعبير آخر : هو حذف موانع الإلتفات إليه سبحانه، وهذا لا يتحقق إلا بحذف الموانع الداخلة النفسيّة عن النفس، مثل : محبّة غير اللّه تعالى والميل إلى ما سواه، وحذف الموانع الخارجة مثل متاع الدنيا

وزهراتها ، كما يشير إليه قول بعض الأكابر :

((الزهد ثلاثة أحرف: زاء وهاء ودال ، فالزاء : ترك الزينة ، والهاء : ترك الهوى ، والدال : ترك الدنيا)) .

واعلم أنّ ترك الحرام أفضل الزهد ، لأنّ النفوس تهشّ الحرام وتشتهيه أكثر من الحلال وتركها محوج تحمّل المشاق والمجاهدة لأنّ الإنسان حريص على ما منع ، وانّ الشيطان يوسوس لابن آدم ويرغّبه في الحرام .

وأما المباحات فلعلّه يشكّل الزهد فيها إذا كانت حاصلة ، فانّ تعاطيها من باب إظهار نعم الله (عزّ وجل) على العبد ، وانّ الله يحبّ أن يرى أثر نعمته على عبده ، يشير إلى هذا قوله تعالى : ﴿ وأمّا بنعمه ربّك فحدّث ﴾ (الضحى / الآية ١١) ، وعدم قبول النعمة من التكبّر .

وقال (عليه السلام) لعاصم بن زياد الحارثي ـ وكان قد لبس العباءة وتخلّى عن الدنيا ـ :

((يا عديّ نفسه لقد استهام بك الخبيث ؟ أما رحمت أهلك وولدك؟ أترى الله أحلّ لك الطيّبات وهو يكره أن تأخذ منها ؟ أنت أهون على الله من ذلك)) .

وهذا الكلام يعطينا أنّ هذا الزهد كان من تسويلات الشيطان ، فانّ الشيطان إذا عجز عن إيقاع الإنسان في معصية ما جاءه بالخداع من ناحية الدين ، كما ورد في الكافي عن الصادق (عليه السلام) أنه قال :

((كان عابد في بني إسرائيل لم يقارف من أمر الدنيا شيئاً ، فنخر إبليس نخره فاجتمع إليه جنوده ، فقال : من لي بفلان ؟ فقال بعضهم : أنا له ، فقال : من أين تأتيه ؟ فقال : من ناحية النساء ، قال : لست

له، لم يجرّب النساء، فقال له آخر: فأنا له، فقال له: من أين تأتيه؟ قال: من ناحية الشراب واللذّات، قال: لست له ليس هذا بهذا، قال آخر: فأنا له، قال: من أين تأتيه؟ قال: من ناحية البرّ، قال: إنطلق فأنت صاحبه، فانطلق إلى موضع الرجل فأقام حذاءه يُصلّي، قال: وكان الرجل ينام والشيطان لا ينام، ويستريح والشيطان لا يستريح، فتحوّل الرجل إليه ــ وقد تقاصرت إليه نفسه واستصغر عمله ــ فقال: يا عبد الله بأيّ شيء قويت على هذه الصلاة؟ فلم يجبه، ثم أعاد عليه فقال: يا عبد الله إني أذنبت ذنباً وأنا تائب منه، فاذا ذكرت الذنب قويت على الصلاة، قال: فأخبرني بذنبك حتى أعمله وأتوب، فاذا ذكرته قويت على الصلاة، قال: أدخل المدينة فاسأل عن فلانة البغيّة فأعطها درهمين ونل منها، قال: ومن أين لي درهمين؟ ما أدري ما الدرهمين؟ فتناول الشيطان من تحت قدمه درهمين فناوله إيّاهما، فقام فدخل المدينة بجلابيبه يسأل عن منزل فلانه البغيّة، فأرشده الناس وظنّوا أنه جاء يعظها، فجاء إليها فرمى إليها بالدرهمين وقال: قومي، فقامت ودخلت منزلها وقالت أدخل ثم قالت: إنّك جئتني في هيئة ليس يُؤتى مثلي في مثلها، فأخبرني بخبرك؟ فأخبرها، فقالت له: يا عبد الله إنّ ترك الذنب أهون من طلب التوبة، وليس كلّ من طلب التوبة وجدها، وإنما ينبغي أن يكون هذا شيطاناً مثّل لك فانصرف فانّك لا ترى شيئاً، فانصرف، وماتت المرأة من ليلتها، فأصبحت وعلى بابها مكتوب: ((احضروا فلانه فانها من أهل الجنّة)) ، فارتاب الناس في أمرها، فمكثوا ثلاثاً لم يدفنوها فأوحى الله (عزّ وجل) إلى نبيّ من الأنبياء ــ لا أعلمه إلا موسى بن عمران (عليه السلام) ــ أن ائت فلانة فصلّ عليها، ومر

الناس أن يصلّوا عليها ، فانّي قد غفرت لـها وأوجبت لها الجنّة بتثبيطها عبدي فلان عن معصيتي)) .

لا علم كالتفكّر

(الثانية عشرة) : ((ولا علم كالتفكّر)) ، أي كالعلم الحاصل عن التفكّر ، والتفكّر : هو استعمال العلم الحاصل في تحصيل ما يجهل ، فهو أنفع من العلم بغير تفكّر .

وبعبارة أُخرى :

التفكّر : علم نام يتولّد منه العلوم ، فهو أشرف العلم .

والعلم بلا تفكير أعظم خطراً من التفكير بلا علم ...

والتفكّر : التأمّل ، وهو اعمال الخاطر في الشيء ، وينتج منه تفهّم الأشياء كما ينبغي والتحرّز عن الوقوع في الخطأ ، إذ لا فائدة من حفظ الألفاظ دون الوقوف على ما هو المراد منها ، وقد ذمّ اللّه (عزّ وجل) من لا يتفكّر ولا يتدبّر ، فقال :

﴿أو لم يتفكّروا في أنفسهم﴾ (الروم/الآية ٨) .

وقال :

﴿أفلا يتدبّرون القرآن﴾ (النساء/الآية ٨٢) .

واعلم أنه ما من شيء في هذا الوجود يطلب لذاته بل لغاية ما ولمصلحة ، ولا شيء أفضل وأعظم من الايمان باللّه تعالى وكتبه ورُسله ، فانّه يطلب لمعرفة عبادة اللّه تعالى وكيفيّة العمل بطاعته ، ولم يرد أمير المؤمنين (عليه السلام) إلا التفكّر في هذا المعنى ، حيث ورد عنه في حديث آخر :

((التفكّر يدعو إلى البرّ والعمل به)) .

وذلك انّ التفكّر بمنزلة السراج للقلب حيث انّ المتفكّر بشدّة تأمّله وموازنته للأشياء والتطلّع إلى معرفة العواقب يتمكّن من معرفة الخير والشرّ

والمنافع والمضار، وكأنه ناظر إليه بالعين وقابض عليه باليد ، وكلّ قلب لا فكر فيه فهو مظلم لا يرى إلى البرّ دليلاً ، ولا إلى العمل سبيلاً ، فهو أصمّ أعمى ، كما قال الله تعالى :

﴿ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تُسمع الصمّ ولو كانوا لا يعقلون * ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى العُمْيَ ولو كانوا لا يُبصرون﴾ .

(يونس/ الآيتان ٤٢و٤٣) .

وهذا التفكّر لا بدّ وأن يكون مما ينبغي التفكير به ، أعني جواهر الأمور التي تؤدّي إلى السعادة الأبديّة ، كأن يتفكّر لأيّ شيء خلق ، ومن أين جاء ، وإلى أين ينتهي أمره ، ولأيّ شيء أُنزل في هذا المنزل ، وهل هو من أهل السعادة أم من أهل الشقاوة . .

وهذا التفكّر أشدّ جاذب له إلى البرّ والعمل به ، وكذا التفكّر في أحوال الماضين من الأمم ، وأخبارهم وآثارهم ،والتفكّر في أنهم بنوا ما لم يسكنوا وجمعوا ما لم يأكلوا ، وسعوا فيما لم ينتفعوا ، كما قال(عزّ وجل) :

﴿كم تركوا من جنّات وعيون وزُروع ومقام كريم ونَعْمة كانوا فيها فاكهين﴾

(الدخّان/ الآيتان ٢٥ـ ٢٧) .

فاذا فكّر في هذه الأمور صغرت في عينه الدنيا ، وأشرق قلبه بنور ربّه فرأى بعين بصيرته أحوال الآخرة ومقاماتها ، فتنصرف نفسه كليّاً عن زهران هذه الفانية ومقتنياتها ، واتّجه إلى حضرة الحق سبحانه ، فجد واجتهد في أعمال البرّ الموصلة إليه والمقرّبة منه(عزّ وجل) ، وهذا لا يكون إلا بالتفكّر .

ومن التفكّر أن يتأمّل في معاني الآيات عند تلاوة القرآن ، فاذا قرأ من الآيات ما يشتمل على صفاته تعالى ، مثل : الحكيم والعزيز والقدّوس

وغيرها يتأمّل في أسراره ، وإذا بلغ آيات الأفعال مثل : خلق السماوات والأرض يتأمّل في عظمة الخالق وكمال علمه وقدرته ، قال (عزّ وجل) :

أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء
(الأعراف / الآية ١٨٥) .

وقال أيضاً :

الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً ويتفكّرون في خلق السماوات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلا (آل عمران / الآية ١٩١) .

إلى غير ذلك من الآيات وما أكثرها في القرآن .

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) :

((أفضل العبادة إدمان التفكّر في الله وفي قدرته)) .

أداء الفرائض

(الثالثة عشرة) : ((ولا عبادة كأداء الفرائض)) ؛ الفرائض هي أهمّ ما كلّف به الإنسان ، وألزم ما يعمله في تحصيل الأغراض الروحانيّة ، والقربات الملكوتيّة ، فلا عبادة مثلها .

وفي حديث النبيّ الأكرم (صلّى الله عليه وآله وسلّم) :

((من أدّى ما افترض الله عليه فهو من أعبد الناس)) .

وفي حديث آخر عنه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) :

((أفضل الناس من عشق العبادة ، فعانقها وأحبّها بقلبه وباشرها بجسده ، وتفرّغ لها ، فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا ، على عُسر أم على يسر)) .

وفي حديث آخر ؛ عن الصادق (عليه السلام) أنه قال :

((قال الله تبارك وتعالى : "ما تحبّب إليّ عبدي بأحبّ مما افترضتُ عليه")) .

ولعلّ فيها ما يشعر بالتنديد على الذين يقومون بالأعمال المستحبّة ويتهاونون بالفرض ظنّاً منهم بأنه أفضل ، وهذا خطأ محض لأنّ الله يريد أن يطاع فيما أمر ، والتوقّف عمّا نهى عنه ·

قال تعالى :

﴿ فليحذر الذين يُخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ (النور/ الآية ٦٣) ·

وربّما أدّى القول بتقديم النوافل على الفرض إلى الاعجاب بالرأي المؤدّي إلى الكبرياء ، ثم ما يدريك أنّ هذا تشريع في مقابل ما ورد عن الله والرسول ، فهو أقبح المعاصي :

﴿ قل هل نُنبّئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنعا ﴾

ثم ما يدريك أنّ تكون هذه التي يسمّونها عبادات أن تكون بدع وأكاذيب لا حقيقة لها ، حيث كذب على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في حياته ومن بعد وفاته ، وعلى فرض الصحّة فالواجب أشرف من غيره ، وانّ الله لا يسألك إلا عمّا أمرك أو نهاك ·

الحياء والصبر

(الرابعة عشرة) : ((ولا إيمان كالحياء والصبر)) ، أي انّ المؤمن لا يكمل إيمانه ما لم تكن فيه هاتان الخصلتان : الحياء والصبر ·

والحياء : هو التحفّظ عن إظهار ما لا ينبغي من القول أو الفعل أمام الله (عزّ وجل) وأمام الناس ·

وبعبارة أُخرى : هو وصف للنفس يوجب انقباضها عن القبيح وانزجارها عن خلاف الآداب خوفاً من اللوم ·

وبتعبير آخر : هو تغيّر وانكسار يعتري الانسان من تخوّف ما يعاب به

ويـــــــذمّ.

وليس بالبعيد أن يكون بين الحياء والإيمان تلازم شديد أو أنه جزء منه، كما يرشد إليه هذا الحديث، وحديث آخر عن الإمام الصادق(عليـــه السلام) : ((لا إيمان لمن لا حياء له)).

وفي حديث معاذ بن كثير، عن أحدهما (عليهما السلام) :

((الإيمان والحياء مقرونان في قرن، فاذا ذهب أحدهما تبعـــــه صاحبه)).

أي إنهما مجموعان في حبل واحد، وانهما لا يمكن انفكاكهما أحدهما عن الآخر، وهو كناية عن شـــدّة التلازم وعدم الإنفكاك.

وأما الصبر فهو تحمّل المشاق الجسميّة والنفسيّة وعدم التضجّر منها، أو هو نقيض الجزع.

وعبارة الصحـــــاح : الصبر حبس النفس عن الجزع، وقد صبر فـــلان عند المصيبة يصبر صبراً، وصبرته أنا حبسته، إنتهى.

وفي تاج العروس : الصبر في اللغة الحبس والكفّ في ضيق، ومنـــــه قيل : فلان صبر إذا أمسك وحبس للقتل.

فالصبر : حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش.

وقال ذو النون : الصبر التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجـــرع غصص البليّات، وإظهار الغنى مع طول الفقر بساحات المعيشة.

وقيل : الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب.

وقيل : هو الفناء في البلوى بلا ظهور شكوى.

وقيل : إلزام النفس الهجوم على المكاره.

وقال عمرو بن عثمان: هو الثبات مع الله وتلقّى بلائه بالرحب والسعة

وقال الخواص: هو الثبات على أحكام الكتاب والسُنّة.

وقيل: الصبر أن ترضى بتلف نفسك في رضا من تحبّه.

وقال الجريري: الصبر أن لا يفرق بين حال النعمة وحال المحنة مع سكون الخاطر فيهما.

وقيل: مراتب الصبر خمسة:

صابر، ومصطبر، ومتصبّر، وصبور، وصبّار.

فالصابر: أعمّها، والمصطبر: المكتسب للصبر المبتلى به، والمتصبّر: متكلّف الصبر وحامل نفسه عليه، والصبور: العظيم الصبر الذي صبره أشدّ من صبر غيره، والصبّار: الشديد الصبر، إنتهى.

وفي الحديث:

((الصبر صبران: صبر على ما تكره، وصبر عمّا تُحب)).

فالصبر الأول: مقاومة النفس للمكاره الواردة عليها وثباتها وعدم إنفعالها، وقد يسمّى: سعة الصدر، وهو داخل تحت الشجاعة.

والصبر الثاني: مقاومة النفس لقوّتها الشهويّة، وهو فضيلة داخلة تحت العفّة.

والصبر يتعدّى بـ((من)) كما في المعاصي، وتارة بـ((على)) كما في الطاعات، يقال: صبر على الصلاة.

والصبر: الذي يصبر في الضرّاء كما يصبر في السرّاء، وفي الفاقة كما يصبر في الغناء، وفي البلاء كما يصبر في العافية، ولا يشكو خالقه عند المخلوق بما يصيبه من البلاء.

وفي الخبر:

((يأتي زمان الصابر على دينه كالصابر على الجمر)) ·

والجملة ظرف زمان، أي كما لا يقدر القابض على الجمر أن يصبر عليه لإحراق يده، كذا المتديّن يومئذٍ لا يقدر على ثباته على دينه لغلبة العصاة وانتشار الفتن وضعف الإيمان ·

وفي الكافي، عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال:

((قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله): سيأتي على الناس زمان لا ينال الملك فيه إلا بالقتل والتجبّر، ولا الغنى إلا بالغضب والبخل، ولا المحبّة إلا باستخراج الدين واتّباع الهوى، فمن أدرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى، وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبّة، وصبر على الذلّ وهو يقدر على العزّ آتاه اللّه (عزّ وجل) ثواب خمسين صدّيقاً ممن صدّق بي)) ·

ولمّا كان الحياء والصبر أكبر رادع للانسان عن القبيح وكانا حاملين له قمع الشهوة والتغلّب عليها عدّهما (عليه السلام) نفس الإيمان، وهو كناية عن شدّة الملازمة بينهما وبين الإيمان، إذ المؤمن لا يكون وقحاً قليل الحياء، ولا جزوعاً عديم الصبر، فالحيي الصابر هو المؤمن الكامل ·

التواضع

(الخامسة عشرة): ((ولا حسب كالتواضع)) ، قال في مجمع البحرين:

الحسب بفتحتين: الشرف بالآباء وما يعدّ من مفاخرهم، وهو مصدر (حسب) بالضمّ ككرم، ومنه: ((من قصر به علمه لم ينفعه حسبه)) ·

وحسب الرجل: دينه ·

وفي الحديث: ((لا حسب أبلغ من الأدب)) .

وفيه : ((المؤمن يبتلى على حسب دينه)) أي قدر دينه من الشدّة والضعف.

والحسب: النسب، يقال : كيف حسبه فيكم ؟ أي نسبه، إنتهى .

وفي المصباح المنير :

والحسب بفتحتين : ما يعدّ من المآثر، وهو مصدر(حسب) وزان شرف شرفاً ، وكرم كرماً ، قال ابن السكيت: الحسب والكرم يكونان في الإنسان وإن لم يكن لآبائه شرف، ورجل حسيب أي كريم بنفسه، قال : وأما المجد والشرف فلا يوصف بهما الشخص إلا إذا كانا فيه وفي آبائه .

وقال الأزهري :

الحسب: الشرف الثابت له ولآبائه، قال : وقوله(عليه السلام) :

((تنكح المرأة لحسبها)) .

أحوج أهل العلم إلى معرفة الحسب، لأنه مما يعتبر في مهر المثل ، فالحسب الفعل له ولآبائه مأخوذ من الحساب، وهو عدّ المناقب، لأنهم كانوا إذا تفاخروا حسب كلّ واحد مناقبه ومناقب آبائه، ومما يشهد لقول ابن السكيت قول الشاعر :

ومن كان ذا نسب كريم ولم يكن له حسب كان اللئيم المذمما

جعل الحسب فعال الشخص ، مثل : الشجاعة وحسن الخلق والجود ومنه قوله : ((حسب المرء دينه)) ، وقولهم : (يجزى المرء على حسب عمله) أي على مقداره ، إنتهى .

وإذا كان الحسب هو ما يعدّ من المآثر والفضائل ، كان التواضع الذي هو إظهار الخشوع والخضوع والذلّ والإفتقار عند ملاحظة عظمة اللّه

وجلاله، أو عند التشرّف بنعمة من نعمه الدنيويّة والأُخرويّة، جسمانيّة كانت أم روحانيّة، وهو أشرف ما يعدّ من المآثر، وقد سبق القول فيه.

لا شرف كالعلم

(السادسة عشرة): ((ولا شرف كالعلم))؛ يطلق العلم على اليقين، وهو ما حصل عن طريق النظر والاستدلال وكان ثابتاً مقطوعاً به ولو عند صاحبه.. ويطلق على المعرفة، وهو ما كان أدراكه بحاسّة من الحواسّ الخمس، والعلم سواء كان يقيناً أو معرفة فانه نقيض الجهل، وهو يُضفي على صاحبه صفة يمتاز بها عمّن هو عريّ منها وهو أصناف كثيرة لا مجال لاحصائها، فهل المقصود بالعلم الذي لا شرف أعلى منه، كلّ ما يسمّى علماً، أم هو صنف خاصّ ولا يعبأ بما سواه؟.

فان كان الأول فهذا فوق مقدور البشر، إذ لا يمكن الاحاطة بجميع العلوم مهما امتدّ العمر، ولقد أجاد من قال:

ما حوى العلم جميعاً أحد ... لا ولو مارسه ألف سنة

إنما العلم كبحر زاخر ... فاتخذ من كلّ شيء أحسنه

وإن كان الأخير فأيّ علم هو؟.

لقد اختلف فيه وكلّ يجرّ النار إلى قرصه، وينسب الفضل إلى نفسه.

فقال المتكلّمون: هو علم الكلام، إذ به يدرك التوحيد ويعلم ذات اللّه وصفاته.

وقال الفقهاء: هو علم الفقه، إذ به تعرف العبادات، والحلال والحرام، وكيفيّة المعاملات وما يحرم منها وما يحلّ.

وقال المفسّرون والمحدّثون: هو علم الكتاب والسُنّة، إذ بهما يتوصّل إلى العلوم كلّها.

وقالت المتصوّفة: المراد به هذا العلم، أي علمهم الذي يسمّونه

علم السلوك وعلم الشهود .

وقال بعضهم : هو علم العبد بحاله ومقامه عند الله ومن الله .

وقال آخرون : هو علم الباطن ، وهو العلم بالإخلاص ، وآفات النفوس وتمييز لمّة الملك من لمّة الشيطان .

وقال أبو طالب المكّي : هو العلم بما يتضمّنه الحديث الذي فيه مباني الإسلام ، وهو قوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) : ((بُني الإسلام على خمس)) ، لأنّ الواجب هذه الخمس ، فيجب العلم بكيفيّة العمل فيها وبكيفيّة الوجوب .

بل انّ كلّ صاحب فنّ من الفنون وصنعه من الصناعات يدّعي أنّ ما يعانيه هو المعنى لإشتماله على مصالح ومنافع :

وكلّ يدّعي وصلاً بليلى ... وليلى لا تقرّ لهم بذاكا

والحقّ انّ إسم العلم مشترك مثل إسم الوجود ، فكما انّ جميع الكائنات على كثرتها وكثرة أنواعها مشتركة في الوجود ، فكذلك كلّ ما يعيه الإنسان ويعقله ـ حسّيّاً كان أو غير حسّيّ ، عمليّاً كان أو نظريّاً ـ يصدق عليه أنه علم ، وانّ الطبّاخ ليدّعي أنّ فنّ الطبخ علم ، وله أن يقول : انّ المقصود هو علم الطبخ ، ويقول الخبّاز : انّ المقصود هو علم الخبز ، لأنه لا غنى لأحد عنهما ، ولا قوام لجسم الإنسان بدونهما ، فهل هذا صحيح ، وهل يعقل أنه يحصر عظيم الشرف بمثل هذا علم وهذي صناعة ، أليس هو القائل فيما كتبه إلى عثمان بن حنيف :

((فما خُلقت ليشغلني أكل الطيّبات ، كالبهيمة المربوطة ، همّها علفها ، أو المرسلة شغلها تقممها ، تكترش من أعلافها وتلهو عمّا يراد بها)) .

ولعمري أنّ قصد أمير المؤمنين (عليه السلام) لا يعدو قول رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) حيث يقول :

((إنما العلم ثلاثة : آية محكمة ، أو فريضة عادلة ، أو سُنّة قائمة ، وما خلاهنّ فهو فضل)) .

فهو(صلّى اللّه عليه وآله) يحصر ما يستحقّ إطلاق إسم العلم عليه وينفع في الدين والدنيا بهذه الثلاثة ، وهي : الآية المحكمة ، غير المنسوخة ، وغير المتشابهة ، حيث لا يعمل بالمنسوخ إلا في بعض الموارد الإضطراريّة حال عدم التمكّن من العمل بالناسخ ، مثاله : قول اللّه تعالى لنبيّه وذلك في بدء الدعوه :

﴿إدفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ (فُصّلت/ الآية ٣٤) .

وقال أيضاً :

﴿خذ العفو وأمر بالعُرف وأعرض عن الجاهلين﴾ .

(الأعراف / الآية ١٩٩) .

ثم في حال وجود القوّة والمنعة يقول تعالى :

﴿يا أيها النبيّ جاهد الكفّار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ .

(التوبة/ الآية ٧٣/ والتحريم/ الآية ٩) .

ويقول أيضاً :

﴿فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق﴾ (محمد / الآية ٤) .

ففي الآيتين الأوليين نراه يأمرنا بالتي هي أحسن أو الاعراض عن المقابلة السيّئة بمثلها ، وفي الآخريين يأمرنا بالشدّة والعنف، فاختلف الإتجاه باختلاف المقتضى ، حيث لكل عمل مقتضى ، ولكلّ حادث حديث.

وأما المتشابهة فهي ذات المعاني الكثيرة المختلفة أو لا يستطاع

معرفة معناها إلا بالرجوع إلى غيرها ، وقال (عليه السلام) لعبد الله بن عبّاس لمّا بعثه للاحتجاج على الخوارج :

((لا تخاصمهم بالقرآن ، فانّ القرآن حمّال ، ذو وجوه ، تقول ويقولون ، ولكن خاصمهم بالسُنّة ، فانهم لن يجدوا عنها محيصاً)) .

وبالجملة : كلّ ما يحتاج إلى تأويل أو تتكثّر معانيه فهو من المتشابه ، وأما المحكم فهو ما لا يقبل التأويل لأنّ ظاهره كباطنه ، وعليه عمل المكلّفين .

المراد بالفريضة العادلة

وفرضت الشيء : أفرضته فرضاً ؛ أوجبته ، وقوله تعالى :

﴿سورة أنزلناها وفرضناها﴾ (النور/الآية ١) ، معناه : ألزمناكم العمل بالأحكام التي ذكرت فيها ، والإسم : الفرض والفريضة ، والجمع : الفرائض ، وفرائض الله : حدوده التي أمر بها ونهى عنها ، وكذلك الفرائض بالميراث لأنّ الله جعل لها حدوداً ومقادير ، والفرض ما أوجبه الله (عزّ وجل) ، سمّي بذلك لأنّ له معالم وحدوداً ، وفرض الله علينا كذا وكذا وافترض أي : أوجب ، والفرض : التوقيت ، وكلّ واجب موقّت فهو مفروض ، والفرض : الحزّ والقطع والتقدير والعطيّة ، بل انّ الفرض والفريضة : كلّ ما أوجبه الله وجعله لزاماً على العبد في الفعل أو الترك ، والفريضة العادلة : التي تعمّ جميع المكلّفين ، فيكون تكليف الجميع على السواء ، فيكون تعلّمها ليؤدّيها صحيحة ، لأنّ العدل معناه المساواة .

وقيل : عادلة أي غير منسوخة .

وقيل : عادلة ، أراد في القسمة : أي معدلة على السهام المذكورة في كتاب الله والسُنّة من غير جور .

وقيل : أراد أنها تكون مستنبطة من الكتاب والسُنّة وإن لم يرد فيها نصّ فيهما فتكون معادلة للنصّ .

وقيل : الفريضة العادلة ما اتّفق عليه المسلمون ،

والصحيح : انّ الفريضة ، هي كلّ ما طلبه اللّه من العباد أن يفعلوه أو يتركوه .

المُراد بالسُّنّة القائمة

والسُنّة : الطريقة والعادة ، وسُنّة اللّه في خلقه أي عادته التي قضاها عليهم أن يهلكهم إذا كذّبوا أنبياءه ، وأن يحسن عاقبتهم إذا أطاعوه .

وسُنّة النبيّ : هي طريقته (صلّى اللّه عليه وآله) قولاً وفعلاً وتقريراً أصالة بمعنى : انّ هذا الأمر فعله هو بنفسه ، أو نيابة بمعنى : انه فعله غيره بأمره أو فعله بحضرته فلم ينكر عليه .

والمراد بالسُنّة القائمة : الطريقة النبويّة ، وقوله : قائمة أي دائمة مستمرّة ، والعمل بها متّصل لا يترك ، وقائمة : مأخوذ من قام فلان على الشيء إذا ثبت عليه وتمسّك به .

ولا يبعد أنه (صلّى اللّه عليه وآله) يقصد من مجموع الثلاثة بما يكون ثبوته من السُنّة النبويّة التي لا يطرأ عليها النسخ سواء كان فريضة أو لا ، وخصّ بعضاً بغير إسم الفريضة وإن كان الكلّ فرضاً بقرينة المقابلة والتنويع إشارة إلى معرفة ضبطها وطريق تحصيلها ، فكأنه يشير بالآية إلى العلم بالمحكمات القرآنيّة المتعلّقة بأصول الدين وفروعه ، وبالمواضع والنصائح ، والعبرة بأحوال الماضين ، وإنما خصّ المحكم بالذكر لأن المنسوخ كما تقدّم لا يعمل به إلا في موارد خاصّة ، فالإنتفاع به قليل ، والمختلف الذي يحتمل الوجوه فقطعاً لا يستطيع معرفة الحقّ منه إلا المعصوم ، وكذا المتشابه الذي يحتاج إلى التأويل ، لقوله تعالى :

﴿ وما يعلم تأويله إلا اللّه والراسخون في العلم ﴾ (آل عمران / الآية ٧) .

ويشير بالفريضة العادلة إلى العلم بكيفيّة العمل وجميع الأمور المعتبرة

فيه شرعاً من غير إفراط ولا تفريط.

ويُشير بالسُنّة القائمة إلى العلم بالأحاديث التي بعضها في التوحيد وما يليق به، وبعضها في المعاد وما يناسبه، وبعض منها في الأخلاق وما يتعلّق بها، وبعض في الأحكام وما يُعتبر فيها، وبعض في عادات الرسول والأئمة (صلّى اللّه عليه وعليهم أجمعين).

وهذا هو العلم الصحيح الذي ينتفع به الإنسان في الدارين ويستحقّ إطلاق إسم العلم عليه بالمعنى الصحيح، وما سواه فضل، أي زيادة.

وهذا العلم، أعني علم الدين أشرف الكمالات، وأفضل السجايا، وأعلى الصفات، فلا شرف كشرفه، ولا كمال ككماله، وحسبك انه علم الأنبياء، وهو النور الفائض عليهم من عند الحق تعالى، فهو مصباح الهداية، ومنار الولاية، ومقباس الرشاد، وميزان السداد، يهدي به اللّه من اتّبع رضوانه سُبل السلام، تتطلّع القلوب إلى صاحبه وتهوى إليه الأفئدة، وهو الهادي من الضلالة والمبصر من العمى، فلا شرف أعلى ولا أرفع ولا أنفع منه.

المُشاوَرة

(السابعة عشرة): ((ولا مظاهرة أوثق من مشاورة))، يريد بالمظاهرة: إتخاذ الأعوان، لأن الظهير هو المعاون، فكأنه يقول: لا يستطيع أحدكم إدراك نتائج الأعمال بنجح وظفر بنفسه، بل لا بدّ له من معاون يعمل معه بنصح وإخلاص، ومن لك بالناصح المخلص؟ فانه أعزّ من الكبريت الأحمر، فعليك بمشاورة أهل الدراية والإختبار، واجمع آراءهم إلى رأيك، فانك لا تخلو حينئذٍ من رأى حميد.

والمشاورة مشتقّة من شرت العسل، أي استخرجته من موضعه، وأشار

عليه بكذا : أمره ، واستشاره : طلب منه المشورة ، والمشورة بالفتح فالسكون : الإسم من شاورته أي أخذت رأيه ، وكذلك المشورة بضمّ الشين ، والمشاورة : مراجعة الغير فى أمر ما لإستطلاع رأيه فيه .

والمشاورة لا بدّ وأن تنتج الرأي الصحيح غالباً فيما يراد من الأمور، والرأي الصحيح أنفع في التدبير من القوّة الجسميّة ومن كثرة العدد ، كما قال المتنبّي :

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أول وهي المحلّ الثاني

والمشاورة تشحذ الذهن وتصقله ويهتدى بها إلى معرفة عواقب الأمور وبواسطتها يوصل إلى المطالب والرغائب، وبها تنال الغايات والمقاصد .

آيات من سورة : (ويل للمطففين)

قوله تعالى :

﴿كلاّ إنّ كتاب الفجّار لفي سجّين (٧) وما أدراك ما سجّين (٨) كتاب موقوم(٩) ويل يومئذٍ للمكذّبين(١٠)﴾ .

في روح البيان :

((كلاّ)) : ردع عمّا كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب، فيحسن الوقف عليه ، وان كان بمعنى(حقّاً) فلا ، لكونه - يئنئذٍ متّصلاً بما بعده .

((إنّ كتاب الفجّار لفي سجّين)) : تعليل للردع ، والكتاب: مصدر بمعنى المكتوب، كاللباس بمعنى الملبوس ، أو على حالة بمعنى الكتابة ،

ما المراد بسجّين

واللام للتأكيد ، وسجّين : علم لكتاب جامع ، هو كتاب الشر ، دون أعمال الشياطين ، وأعمال الكفرة والفسقة من الثقلين ، منقول من وصف كخاتم ، وهو منصرف لأنه ليس فيه إلا سبب واحد وهو التعريف ، وأصله : فعّيل ، من السجن مبالغة الساجن ، أو لأنه مطروح ـ كما قيل ـ تحت الأرض السابعة في مكان مظلم وحش ، وهو مسكن إبليس وذرّيته ـ إذلالاً لهم وتحقيراً لشأنهم ـ وتشهده الشياطين المدحورون ، كما انّ كتاب الأبرار يشهده المقرّبون ، فالسجّين : مبالغة المسجون ، والمعنى : إنّ كتاب الفجّار الذين من جملتهم المطففون ، أي : ما يكتب من أعمالهم أو كتابة أعمالهم في ذلك الكتاب المدوّن فيه قبائح أعمال المذكورين .

وفي التأويلات النجميّة : إنّ كتاب إستعداد هم الفطري مكتوب في ديوان سجّين ـ طبيعتهم المجبولة على الفسق والفجور ـ بقلم اليد اليسرى على ورق صفحة جبينهم ، كما قال (عليه السلام) :

((السعيد من سعد في بطن أُمّه ، والشقيّ من شقي في بطن أُمّه))

إنتهى .

وفي الدرّ المنثور :

أخرج ابن المبارك في الزهد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر من طريق شمر بن عطيّة :

انّ ابن عبّاس (رضي اللّه عنهما) سأل كعب الأحبار عن قوله : ﴿كلاّ إنّ كتاب الفجّار لفي سجّين﴾ ؟ قال : إنّ روح الفاجر يصعد بها إلى السماء فتأبى السماء أن تقبلها ، فيدخل بها تحت سبع أرضين حتى ينتهي بها إلى السجّين ـ وهو خدّ إبليس ـ فيخرج لها من تحت خدّ إبليس كتاباً فيختم ويوضع تحت خدّ إبليس لهلاكه للحساب ، فذلك قوله تعالى : ﴿وما أدراك

ما سجّين كتاب مرقوم﴾ .

وقوله :﴿إنّ كتاب الأبرار لفي علّيين﴾ قال : إنّ روح المؤمن إذا عُرج بها إلى السماء فتنفتح لها أبواب السماء ، وتلقاه الملائكة بالبشرى حتى ينتهي بها إلى العرش ، وتعرج الملائكة فيخرج لها من تحت العرش رقّ فيرقم ويختم ويوضع تحت العرش لمعرفة النجاة للحساب يوم القيامة ، ويشهد الملائكة المقرّبون ، فذلك قوله :﴿وما أدراك ما علّيون كتاب مرقوم﴾ إنتهى .

وقال الرازي :

إنّ اللّه تعالى أجرى أُموراً مع عباده على ما تعارفوه بينهم ، من التعامل فيما بينهم وبين عظمائهم ، فالجنّة موصوفة بالعلوّ والصفاء والفسحة وحضور الملائكة المقرّبين ، كلّ ذلك من صفات الكمال والعزّة ، وأضدادها من صفات النقص والذلّة ، فلمّا أريد وصف الكفرة وكتابهم بالذلّة والحقارة ، قيل : إنه في موضع التسفّل والضيق والظلمة وحضور الشياطين ، ولمّا وصف كتاب الأبرار بالعزّة قيل : إنه في علّيين ، ويشهده المقرّبون ، إنتهى .

وفي لسان العرب :

سجّين : فعّيل من السجن ، والسجّين : السجن ، وسجين : واد في جهنّم ، نعوذ باللّه منها ، مشتقّ من ذلك ، والسجّين : الصلب الشديد من كلّ شيء ، وقوله تعالى : ﴿كلاّ إنّ كتاب الفجّار لفي سجّين﴾ قيل : المعنى انّ كتابهم في حبس لخساسة منزلتهم عند اللّه (عزّ وجل) ، وقيل : في سجّين : في حجر تحت الأرض السابعة ، وقيل : في سجّين : في حساب .

قال ابن عرفة :

هو فعّيل ، من سجنت ، أي هو محبوس عليهم كي يجازوا بما فيه .

وقال مجاهد :

لفي سجّين : في الأرض السابعة .

الجوهري : سجّين ، موضع فيه كتاب الفجّار .

قال ابن عباس : ودواوينهم .

وقال أبو عبيدة : وهو فعّيل من السجن الحبس ، كالفسّيق من الفسق

وفي حديث أبي سعيد : ويُؤتى بكتابه مختوماً فيوضع في السجّين .

قال ابن الأثير : هكذا جاء بالألف واللام ، وهو بغيرهما إسم علم للنار ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إنّ كتاب الفجّار لفي سجّين ﴾ .

وقال غيره : هو فعيل من السجن ، كأنه يثبت من وقع فيه فلا يبرح مكانه ، إنتهى .

وفي التفسير المنسوب لابن عربي :

((انّ كتاب الفجّار)) أي ما كُتب من أعمال المرتكبين للرذائل ، الذين فجروا بخروجهم عن حدّ العدالة المتّفق عليها في الشرع والعقل ((لفي سجّين)) في مرتبة من الوجود ، مسجون في حبوس ضيّقة مظلمة ، يزحفون على بطونهم كالسلاحف والحيّات والعقارب ، أذلاّء أخسّاء في أسفل مراكب الطبيعة ودركاتها ، وهو ديوان أعمال أهل الشرّ ، ولذلك فسّر بقوله : ((كتاب مرقوم)) أي ذلك المحل المكتوب فيه أعمالهم كتاب مرقوم ، برقوم هيئآتهم وشرورهم ، إنتهى .

ولعلّ مفاد الآية أنّ تحقق شقاوتهم وبعدهم عن الحق ليس في الخاتمة ويوم القيامة فقط ، بل هو متحقق في بدء الأمر لاجتماع نقوشهم المعيّنة وأمورهم المقدّرة بجميع الكيفيّات والخصوصيّات الذاتيّة والعرضيّة في سجّين ، ((وما أدراك ما سجّين)) : تهويل وتعظيم لأمره وما فيه من النكال والعذاب ،

وانه بحيث لا يدركه دراية أحد .

كِتَابٌ مَرْقُومٌ

أي مكتوب فيه أعمالهم مثبتة عليهم كالرقم في الثوب لا يمحى ولا ينسى حتى يحاسبوا به ويجازوا عليه ، وقيل : مرقوم : رقم عليه بشرّ ، كأنّه علم بعلامة يعرف بها أنه كافر ، وقيل : مرقوم : أي مختوم ، وهو بلغة حِمْيَر ، والرقم : الكتابة والختم ، ويقال للرجل إذا أسرف في غضبه ولم يقتصد : طما مرقمك ، وجاش مرقمك ، وغلى ، وطفح ، وفاض ، وارتفع ، وقذف مرقمك ، والمعنى : إنّ ما كتب لهم متبيّن لا إبهام فيه ، أي ان القضاء حتم لا يتخلّف .

أَخْبارُ الطِّيْنَةِ ... وَمَعْنَاها

وقد ورد انّ الله تعالى خلق قلوب المؤمنين من طينة علّيين ـ وهي جنّة عدن ـ وخلق أبدانهم من دون ذلك ، أي بدرجة ، ولذلك صارت قلوبهم ألين وألطف من أبدانهم .

وخلق الكفّار من طينة سجّين ـ جهنّم ـ قلوبهم وأبدانهم على تفاوت دركاتها ، باعتبار تفاوت حالاتهم في العتوّ والطغيان ، ولذلك قلوبهم في الغلظة والكثافة مثل أبدانهم ، يؤيّد ذلك ما ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال :

((إنّ الله (عزّ وجل) خلق المؤمن من طينة الجنّة ، وخلق الكافر من طينة النار)) .

واعلم انّ المراد بالطينة ظاهرها ، أو ما يؤول إليه حال صاحبها ، فيكون معنى كون الخلق من طينتين تابع للايمان والكفر ومسبب عنهما ، لا العكس :

وذلك انّ الله تعالى لمّا علم في الأزل من روح المؤمن طاعته ، ومن روح الكافر عصيانه ، أي أنه سبحانه علم أن جماعة يؤمنون باختيارهم ـ من أيّ

طينة كانوا ـ فخلقهم من طينة علّيين تشريفاً لهم لما سبق من علمه فيهم، وعلم انّ جماعة يكفرون بمحض اختيارهم من أيّ طين كانوا، فخلقهم من طينة سجّين توهيناً لهم وتحقيراً لشأنهم، وذلك لسبق علمه فيهم، يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿فما كانوا ليُؤمنوا بما كُذّبوا به من قبل﴾.

(الأعراف/الآية ١٠١/ويونس ٧٤).

وفي قوله (عزّ وجل):

﴿وإذْ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربّكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنّا ذرّية من بعدهم أفتُهلكنا بما فعل المبطلون * وكذلك نُفصّل الآيات ولعلّهم يرجعون﴾ (الأعراف/الآيات ١٧٢ـ ١٧٤).

لعلّ ممّا يشير إلى ما قدّمناه بدليل البدء بـ ((إذ)) التي تدلّ على الماضي، فكأنه تعالى أقامهم أشباحاً بين يدي قدرته، ثم استنطقهم لأنّ لهم وجوداً جمعيّاً عنده سبحانه، وهو ما يسمّونه: عالم الإبداع، أو عالم الظلال.

وبعبارة أُخرى: عالم الذرّ وعالم المجرّدات، فقال: وقد أراهم من جلاله وبهائه وعظمته ما رآهم: ﴿ألستُ بربّكم﴾ فأجابوا وقد بهرهم نور جلاله قائلين: ﴿بلى﴾ وهي الفطرة المشار إليها بقوله:

﴿فطرة اللّه التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق اللّه﴾.

(الروم/الآية ٣٠).

وقول النبيّ الأكرم (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم):

((كلّ مولود يولد على الفطرة، حتى يكون أبواه يهودانه وينصّرانه

ويمجّسانه)) .

والفطرة بالكسر: الخلقة، والمقصود بها معرفة اللّه تعالى وتوحيده، ولو تأمّلت قوله تعالى: ﴿لا تبديل لخلق اللّه﴾ مع قوله: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كُذّبوا به من قبل﴾ لوجدت المعنى واحداً، والنتيجة واحدة، لأنهم وإن حصل الاعتراف منهم له بالربوبيّة، فانّ هذا الاعتراف لابدّ وأن له شروطاً ولوازم لا قيمة له إذا لم توجد معه، وهي أن يحبّ ما يحبّه اللّه ويبغض ما يبغضه اللّه، فقد روي في أُصول الكافي باسناده عن أبي جعفر الباقر(عليه السلام) أنه قال:

((إنّ اللّه خلق الخلق، فخلق ما أحبّ مما أحب، وكان ما أحب أن خلقه من طينة الجنّة، وخلق ما أبغض مما أبغض، وكان ما أبغض أن خلقه من طينة النار، ثم بعثهم في الظلال، فقلت: وأيّ شيء الظلال؟ قال: ألم تر إلى ظلّك في الشمس؟ شيء وليس بشيء، ثم بعث فيهم النبيين يدعونهم إلى الإقرار باللّه، وهو قوله: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ اللّه﴾ (فُصّلت/ الآية ١٨)، ثم دعاهم إلى الإقرار بالنبيين، فأقرّ بعضهم وأنكر بعضهم، ثم دعاهم إلى ولايتنا، فأقرّ بها واللّه من أحبّ وأنكرها من أبغض، وهو قوله: ﴿فما كانوا ليُؤمنوا بما كُذّبوا به من قبل﴾ ثم قال أبو جعفر(عليه السلام): كان التكذيب ثم)) .

وفيه كان(عليه السلام) يقول:

((إنّ اللّه أخذ ميثاق شيعتنا بالولاية لنا وهم ذر، يوم أخذ الميثاق على الذر، بالإقرار له بالربوبيّة ولمحمد (صلّى اللّه عليه وآله) بالنبوّة، وعرض اللّه(عزّ وجل) على محمد (صلّى اللّه عليه وآله) أُمّته في الطين

وهم أظلّة ، وخلقهم من الطينة التي خلق منها آدم ، وخلق اللّه أرواح شيعتنا قبل أبدانهم بألفي عام ، وعرضهم عليه ، وعرفهم رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) ، وعرفهم عليّاً ، ونحن نعرفهم في لحن القول))

وقال الفاضل محمد صالح المازندراني في شرح أصول الكافي :
((إنّ اللّه (جلّ شأنه) لمّا خلق الأرواح كلّها قابلة للخير والشر ، وعلم أنّ بعضها يعود إلى الخير المحض وهو الايمان ، وبعضها يعود إلى الشرّ المحض وهو الكفر ـ باختيارها ـ ، وأمرها حين كونها مجرّدات صرفة بأمره ، ووقع معلومة مطابقاً لعلمه ، خلق للأول مسكناً ـ وهو البدن ـ من طينة علّيين ، وخلق للآخر مسكناً من طينة سجّين ، كما خلق للمؤمن جنّة وللكافر ناراً ، وذلك ليستقرّ كل واحد فيما يناسبه ، ويعود كل جزء إلى كلّه ، وكلّ فرع إلى أصله ، ومن هٰهنا ظهر أنّ الخلق من الطينتين تابع للايمان والكفر ، ومسبب عن العمل ، دون العكس ، فلا يلزم الجبر ، ولا ينافي الإختيار .

وإنك إذا قررت لعبدك المطيع بيتاً شريفاً ، ولعبدك العاصي بيتاً وضيعاً صحّ ذلك عقلاً وشرعاً ، ولا يصفك عاقل بالظلم والجور ، إذ الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، وهو إنما يلزم لو انعكس الأمر أو وقع التساوي ، وبما قررنا تبيّن فساد توهّم أنّ الايمان والفضل والكمال وأضدادها تابعة لطهارة الطينة وصفائها ، وخباثة الطينة وظلمتها ، وهذا التوهّم يوجب الجبر وبطلان الشرائع والسياسة والتأديب والوعد والوعيد ، نعوذ باللّه منه)) إنتهى .

وفي تفسير فرات ، قال :
حدّثني عليّ بن محمد الزهري ـ معنعناً ـ عن سعيد بن عثمان

الجزّار، قال: سمعت أبا سعيد المدايني عن أبي عبد اللّه(عليه السلام) قال:

((في قول اللّه تعالى: ﴿كلاّ إنّ كتاب الفجّار لفي سجّين وما أدراك ما سجّين كتاب مرقوم﴾ ببغض محمد وآل محمد، ﴿كلاّ إنّ كتاب الأبرار لفي علّيين وما أدراك ما علّيون كتاب مرقوم﴾ بحبّ محمد وآل محمد (صلوات اللّه عليه وعليهم أجمعين))).

وفي العلل عن زيد الشحّام عن أبي عبد اللّه(عليه السلام) أنه قال: ((إنّ اللّه تبارك وتعالى خلقنا من نور مبتدع من نوره، رسخ ذلك النور في طينة من أعلى علّيين، وخلق قلوب شيعتنا مما خلق منه أبداننا، وخلق أبدانهم من طينة دون ذلك، فقلوبهم تهوي إلينا لأنها خُلقت مما خُلقنا منه، ثم قرأ: ﴿كلاّ إنّ كتاب الأبرار لفي علّيين وما أدراك ما علّيون كتاب مرقوم يشهده المقرّبون﴾

وإنّ اللّه تعالى خلق قلوب أعدائنا من طينة من سجّين، وخلق أبدانهم من طينة من دون ذلك، وخلق شيعتهم مما خلق منه أبدانهم فقلوبهم تهوى إليهم، ثم قرأ: ﴿كلاّ انّ كتاب الفجّار لفي سجّين وما أدراك ما سجّين كتاب مرقوم ويل يومئذٍ للمكذّبين﴾)).

واعلم أنّ أعداءهم من أنكر ولايتهم أو ولاية أحدهم، أو دفعهم عن مرتبتهم، أو أنكر بعضاً من فضائلهم وأشدّ من هؤلاء من ناصب شيعتهم العداوة لعلمه أنهم يدينون اللّه بموالاتهم، كما ورد عن الإمام الباقر(عليه السلام) قوله:

((ليس الناصب من نصب لنا أهل البيت، ولكنّ الناصب من نصب

لكم، وذلك إنك لا تجد أحدا يقول: أنا أبغض أهل بيت محمد، ولكن يعلمون أنكم تتولّوننا فيبغضونكم لأجل ذلك)).

ولمّا كان أعداؤهم صنفين:

صنف هم المتقدّمون في العداوة والشرور، وصنف آخر هم المتولّون لهؤلاء ومقلّدون لهم في الكراهة لأهل هذا البيت، وبالطبع فأن أوزار المتقدّمين أكثر وأضخم، وعقوبتهم لا بدّ وأن تكون أشدّ وأعظم من حيث أنهم البادون بالشرّ والمؤسسون له، وعلى ما أسسوه تعاقب الأجيال، كما قال (عليه السلام):

((من سَنَّ سُنّة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن سَنَّ سُنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة)).

لا جرم خلق أبدانهم وقلوبهم من أسفل الدركات وأقبحها، وخلق قلوب تابعيهم مما خلقوا منه، وأبدانهم من دون ذلك، لوضع كلّ واحد في مرتبته التي يستحقّها.

وقوله: ﴿ويل يومئذٍ للمُكذّبين﴾ نعى ودعاء على الفجّار، وفيه تفسيرهم بالمكذّبين، و: ﴿يومئذٍ﴾ ظرف لقوله: ﴿إنّ كتاب الفجّار لفي سجّين﴾ بحسب المعنى، أي ليهلك الفجّار، وهم المكذّبون في ذلك اليوم، إذ تحقق ما كتب لهم وقضى عليهم من الجزاء، وحلّ بهم ما أعدّ لهم من العذاب

وعن الإمام زين العابدين (عليه السلام):

((إنّ اللّه تبارك وتعالى خلق النبيين من طينة علّيين قلوبهم وأبدانهم، وخلق قلوب المؤمنين من تلك الطينة، وخلق أبدان المؤمنين من دون ذلك، وخلق الكفّار من طينة سجّين قلوبهم وأبدانهم

فخلط بين الطينتين، فمن هذا يلد المؤمن الكافر ويلد الكافر المؤمن ومن هٰهنا يصيب المؤمن السيئة، ومن هٰهنا يصيب الكافر الحسنة، فقلوب المؤمنين تحنّ لما خلقوا منه، وقلوب الكافرين تحنّ إلى ما خلقوا منه)) .

وفي العلل: عن داود الرقّي عن أبي عبد اللّه(عليه السلام) قال: ((لمّا أراد اللّه(عزّوجل) أن يخلق الخلق خلقهم ونشرهم بين يديه، ثم قال لهم: من ربّكم؟ فأول من نطق رسول اللّه(صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) وأمير المؤمنين والأئمة(صلوات اللّه عليهم أجمعين) فقالوا: أنت ربّنا، فحمّلهم العلم والدين، ثم قال للملائكة: هؤلاء حملة ديني وعلمي، وأُمنائي في خلقي، وهم المسؤولون، ثم قيل لبني آدم: أقرّوا للّه بالربوبيّة ولهؤلاء النفر بالطاعة والولاية، فقالوا: نعم، ربّنا أقررنا، فقال اللّه(جلّ جلاله) للملائكة: اشهدوا، فقالت الملائكة: شهدنا على أن لا يقولوا غداً: إنا كنّا عن هذا غافلين، أو يقولوا: إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنّا ذرّية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون؟، يا داود ولايتنا مؤكّدة عليهم في الميثاق)) .

كيف بدأ النسل من ذرّية آدم عليه السلام

في الباب السابع عشر من علل الصدوق باسناده إلى زرارة، قال:

سُئل أبو عبد الله(عليه السلام) عن بدء النسل من آدم: كيف كان؟ وعن بدء النسل من ذرّية آدم، فانّ أُناساً عندنا يقولون: إنّ الله(عزّ وجل) أوحى إلى آدم أن يزوّج بناته ببنيه، وانّ هذا الخلق كلّه أصله من الاخوة والأخوات؟ فقال أبو عبد الله(عليه السلام):

((تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، يقول من قال هذا: بأن الله (عزّ وجل) خلق صفوة خلقه وأحبّائه وأنبيائه ورُسله والمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات من حرام، ولم يكن له من القدرة ما يخلقهم من حلال، وقد أخذ ميثاقهم على الحلال الطهر الطاهر الطيّب، فوالله لقد تبيّنت أن بعض البهائم تنكّرت له أخته، فلمّا نزا عليها ونزل كشف له عنها، فلمّا علم أنها أُخته أخرج غرموله ثم قبض عليه بأسنانه حتى قطعه فخرّ ميّتاً، وآخر تنكّرت له أُمّه ففعل هذا بعينه، فكيف الإنسان في إنسيّته وفضله وعلمه! غير أنّ جيلاً من هذا الخلق الذي ترون رغبوا عن علم أهل بيوتات أنبيائهم، وأخذوا من حيث لم يؤمروا بأخذه، فصاروا إلى ما قد ترون من الضلال والجهل بالعلم كيف كانت الأشياء الماضية من بدء أن خلق الله ما خلق وما هو كائن أبداً، ثم قال: ويح هؤلاء، أين هم عمّا لم يختلف فقهاء أهل

الحجاز؟ ولا فقهاء أهل العراق ؟ إنّ اللّه(عزّ وجل) أمر القلم فجرى على اللوح المحفوظ بما هو كائن إلى يوم القيامة قبل خلق آدم بألف عام، وانّ كتب اللّه كلّها فيما جرى فيه القلم، في كلّها تحريم الأخوات على الاخوة، مع ماحرم، وهذا نحن قد نرى منها هذه الكتب الأربعة المشهورة في هذا العالم: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، أنزلها اللّه عن اللوح المحفوظ على رسله(صلوات اللّه عليهم أجمعين)، منها: التوراة على موسى، والزبور على داود، والإنجيل على عيسى والقرآن على محمد (صلّى اللّه عليه وآله)، وعلى النبيين(عليهم السلام)، وليس فيها تحليل شيء من ذلك.

حقّاً أقول: ما أراد من يقول هذا وشبهه إلا تقوية حجج المجوس، فما لهم، قاتلهم اللّه.

ثم أنشأ يحدّثنا كيف كان بدء النسل من آدم وكيف كان بدء النسل من ذرّيته، فقال:

((إنّ آدم(عليه السلام) ولد له سبعون بطناً، في كل بطن غلام وجارية، إلى أن قُتل هابيل، فلمّا قَتل قابيل هابيل جزع آدم على هابيل جزعاً قطعه عن إتيان النساء، فبقى لا يستطيع أن يغشى حوّاء خمسمائة عام، ثم تخلّى ما به من الجزع عليه، فغشي حواء، فوهب اللّه له شيئاً وحده ليس معه ثان، وإسمه: شيث هبة اللّه، وهو أول من أوصى إليه من الآدميين في الأرض، ثم ولد له من بعد شيث يافث ليس معه ثان، فلمّا أدركا، وأراد اللّه أن يبلغ بالنسل ما ترون، وأن يكون ما قد جرى به القلم من تحريم ما حرّم اللّه(عزّوجل) من الأخوات على الاخوة، أنزل بعد العصر في يوم الخميس حوراء

من الجنّة إسمها : نزلة ، فأمر اللّه(عزّ وجل) آدم أن يزوّجها من شيث، فزوّجها منه ، ثم أنزل بعد العصر من الغد حوراء من الجنّة إسمها : منزلة ، فأمر اللّه(عزّ وجل) آدم أن يزوّجها من يافث، فزوّجها منه ، فولد لشيث غلام وولد ليافث جارية ، فأمر اللّه(عزّ وجل) ـ حين أدركا ـ أن يزوّج بنت يافث من ابن شيث، ففعل ، فولد الصفوة من النبيين والمرسلين من نسلهما ، ومعاذ اللّه أن يكون ذلك على ما قالوا من الاخوة والأخوات)) .

وفي المجلس(٥٥) من أمالي الصدوق ، من جملة حديث:
إنّ الأشعث قال لأمير المؤمنين(عليه السلام) : كيف تؤخذ من المجوس الجزية ولم ينزل عليهم كتاب ولم يبعث إليهم نبي ؟ فقال(ع) :
((بلى يا أشعث، قد أنزل اللّه عليهم كتاباً وبعث إليهم نبيّاً ، وكان لهم سكر ذات ليلة ، فدعا بابنته إلى فراشه فارتكبها ، فلمّا أصبح تسامع به قومه ، فاجتمعوا إلى بابه فقالوا : أيها الملك دنّست علينا ديننا فأهلكته ، فاخرج نطهّرك ونقم عليك الحد ، فقال لهم : إجتمعوا واسمعوا كلامي ، فان يكن لي مخرج مما ارتكبت وإلا فشأنكم ، فاجتمعوا ، فقال لهم : هل علمتم انّ اللّه(عزّ وجل) لم يخلق خلقاً أكرم عليه من أبينا آدم وأُمّنا حوّاء ؟ قالوا : صدقت أيها الملك ، قال : أفليس قد زوّج بنيه من بناته وبناته من بنيه ؟ قالوا : صدقت ، هذا هو الدين ، فتعاقدوا على ذلك، فمحا اللّه ما في صدورهم من العلم ورفع عنهم الكتاب، فهم الكفرة يدخلون النار بلا حساب ، والمنافقون أشدّ حالاً منهم)) .

وفي نوادر النكاح من الكافي بالإسناد إلى الإمام الباقر(عليه السلام)،

قـــــال : ذكرت له المجوس وأنهم يقولون : نكاح كنكاح آدم ، وأنهـــم يحاجّوننا بذلك ، فقال :

((أمّا أنتم فلا يحاجّونكم به ، لمّا أدرك هبة اللّه قال آدم : يا ربّ زوّج هبة اللّه ، فأهبط اللّه (عزّ وجـل) له حوراء ، فولدت له أربعة غلمة ، ثم رفعها اللّه ، فلمّا أدرك ولد هبة اللّه قال : يا ربّ زوّج ولد هبـة اللّه ، فأوحى اللّه (عزّ وجل) إليه أن يخطب إلى رجل من الجنّ وكـان مسلماً أربع بنات له على ولد هبة اللّه ، فزوّجهنّ ، فما كان من جمال وحلم فمن قبل الحوراء ، وما كان من سفه أو حدّة فمن الجنّ)) .

وفي البحار عن العيّاشي :

عن أبي بكر الحضرمي عن أبي جعفر (عليه السـلام) قال : قال لي :

((ما يقول الناس في تزويج آدم ولده ؟ قال : قلتُ : يقولون : إنّ حوّاء كانت تلد لآدم في كلّ بطن غلاماً وجارية ، فتزوّج الغلام الجارية التي من البطن الآخر الثاني ، وتزوّج الجارية الغلام الذي من البطن الآخر الثاني ، حتى توالدوا ، فقال أبو جعفر : ليس هذا كذاك ، ولكنّه لمّـا ولد آدم هبة اللّه وكبر سأل اللّه أن يزوّجه ، فأنزل اللّه له حوراء مـن الجنّة فزوّجها إيّاه فولد له أربعة بنين ، ثم ولد لآدم ابن آخر ، فلمّـا كبر أمره فتزوّج إلى الجان ، فولد له أربع بنات ، فتزوّج بنو هذا بنـات هذا ، فما كان من جمال فمن قبل الحوراء ، وما كان من حلم فمن قبـل آدم ، وما كان من خفّة فمن قبل الجان ، فلمّا توالدوا صعدت الحوراء إلى السماء)) .

وفيه أيضاً : عنه (عليه السلام) :

((إنّ آدم ولد له أربعة ذكور ، فأهبط اللّه إليهم أربعة من الحـور

العين، فزوّج كلّ واحد منهم واحدة فتوالدوا، ثم انّ اللّه رفعهنّ وزوّج هؤلاء الأربعة أربعة من الجنّ، فصار النسل فيهم، فما كان من حلم فمن آدم، وما كان من جمال فمن قبل الحور العين، وما كان من قبح أو سوء خلق فمن الجنّ)).

وفي حديث سليمان بن خالد عن الإمام الصادق (عليه السلام):
((إنّ اللّه تبارك وتعالى رزق آدم من حوّاء قابيل وكان ذكراً، وولد من بعده هابيل، فلمّا أدرك قابيل ما يدرك الرجال أظهر اللّه له جنّيّة، وأوحى إلى آدم أن يزوّجها قابيل، ففعل ذلك آدم، ورضي بها قابيل وقنع، فلمّا أدرك هابيل ما يدرك الرجال أظهر اللّه حوراء، وأوحى إلى آدم أن يزوّجها من هابيل، ففعل ذلك، فقتل هابيل والحوراء حامل، فولدت الحوراء غلاماً فسمّاه آدم: هبة اللّه، وأوحى اللّه إلى آدم أن ادفع إليه الوصيّة وإسم اللّه الأعظم، وولدت حوّاء غلاماً، فسمّاه آدم: شيث بن آدم، فلمّا أدرك ما يدرك الرجال أهبط اللّه له حوراء، وأوحى إلى آدم أن يزوّجها من شيث بن آدم، ففعل، فولدت الحوراء جارية، فسمّاها آدم: حورة، فلمّا أدركت الجارية زوّج آدم حورة بنت شيث من هبة اللّه بن هابيل فنسل آدم منهما، فمات هبة اللّه بن هابيل، فأوحى اللّه إلى آدم أن ادفع الوصيّة واسم اللّه الأعظم، وما أظهرتك عليه من علم النبوّة، وما علّمتك من الأسماء إلى شيث)).

فهذه الأخبار ومثلها أكثر، وهي كما ترى وإن اتّفقت في المعنى فانها مختلفة في المضمون، ونحن نعلم أنّ ما قبل الطوفان مجهول التأريخ، وغير معلوم على وجه الصحّة، وغالبها مأخوذ عن أهل الكتاب، وليسوا بثقة

في جميع ما يروونه، وانّ أئمتنا (عليهم السلام) كانوا يحدّثون السائل على وفق ما هو موجود عنده في كتابه ليحصل منه الاعتراف والتسليم، ولئلا يخرج إلى الإنكار والتشنيع، فانّ من شرط الإمام أن يكون محيطاً بجميع العلوم، وبجميع أحوال البشر، ولا يخفى عليه من أمورهم شيء، لأنه الشاهد عليهم فلا يجوز أن يخفى عليه من أحوالهم شيء، وحتى أنه يعلم النوايا وما أضمرته القلوب، لأنه المتوسّم وقد قال اللّه:

﴿إنّ في ذلك لآيات للمتوسّمين﴾ (الحجر/الآية ٧٥).

على أنّا لو أحسنّا التدبّر وأعملنا العقل قليلاً لوجدنا ما نعتبره خلافاً ليس بخلاف فقد ورد أنّ آدم (عليه السلام) عاش تسعمائة وثلاثين سنة أو ستّ وثلاثين، وقد ورد أيضاً أنّ حوّاء ولدت لآدم خمسمائة بطن، في كلّ بطن ذكر وأُنثى.

وورد في الكافي (ص ٢٦٥/ج ١) عن موسى بن أشيم، قال:

كنت عند أبي عبد اللّه (عليه السلام) فسأله رجل عن آية من كتاب اللّه (عزّ وجل)، فأخبره بها، ثم دخل عليه داخل فسأله عن تلك الآية فأخبره بخلاف ما أخبر به الأول، فدخلني من ذلك ما شاء اللّه، حتى كأنّ قلبي يشرح بالسكاكين، فقلتُ في نفسي: تركت أبا قتادة بالشام لا يخطىء بالواو وشبهه، وجئت إلى هذا يخطىء هذا الخطأ كلّه؟! فبينا أنا كذلك إذ دخل عليه آخر فسأله عن تلك الآية، فأخبره بخلاف ما أخبرني وأخبر صاحبي، فسكنتْ نفسي، فعلمتُ أنّ ذلك منه تقيّة، قال: ثم التفت إليّ فقال لي:

((يا بن أشيم إنّ اللّه (عزّ وجل) فوّض إلى سليمان بن داود، فقال: ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾ (سورة (ص)/الآية ٣٩) وفوّض إلى نبيّه (صلّى اللّه عليه وآله) فقال: ﴿ما آتاكم الرسول فخذوه

وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ (الحشر/الآية٧) ، فما فوّض إلى رسول اللّـه فقد فوّضه إلينا)) ·

يريد كما فوّض إلى سليمان فيما آتاه من الملك أن يتصرّف كما أمره اللّه فيقدّم من يصحّ تقديمه ويؤخّر من يصحّ تأخيره ، كذلك فوّض إلينا التصرّف في الأمر والنهي حسب ما تقتضيه المصلحة ، وكلّه مأثور عن رسول اللّه(صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) ·

ومنه في كتاب فضل العلم :

بالاسناد ؛ عن زرارة ، قال : سألته ـ يعني الباقر(عليه السلام) ـ عن مسألة فأجابني ، ثم جاءه رجل فسأله عنها ، فأجابه بخلاف ما أجابني ، ثم جاء رجل آخر ، فأجابه بخلاف ما أجابني وأجاب صاحبي ، فلمّا خرج الرجلان قلتُ: يابن رسول اللّه ، رجلان من أهل العراق من شيعتكم ، قدما يسألان ، فأجبت كلّ واحد منهما بغير ما أجبت به صاحبه؟ فقال :

((يا زرارة ، إنّ هذا خير وأبقى لنا ولكم ، ولو اجتمعتم على أمر واحد لصدّقكم الناس علينا ، ولكان أقلّ لبقائنا وبقائكم)) ·

وفي أعلام الورى :

روى محمد بن إسماعيل عن محمد بن الفضل ، قال : إختلفت الرواية بين أصحابنا في مسح الرجلين في الوضوء ، أهو من الكعبين إلى الأصابع؟ أم من الأصابع إلى الكعبين ؟ فكتب عليّ بن يقطين إلى أبي الحسن موسى (عليه السلام) : جُعلتُ فداك ، إنّ أصحابنا قد اختلفوا في مسح الرجلين؟ فان رأيتَ أن تكتب بخطّك إليّ ما يكون عملي عليه فعلت إن شاء اللّـه ، فكتب إليه أبو الحسن(عليه السلام) :

((فهمتُ ما ذكرتَ من الإختلاف في الوضوء ، والذي آمرك ، لا تغيّر شيئاً : أن تتمضمض ثلاثاً وتستنشق ثلاثاً ، وتغسل وجهك ثلاثاً ، وتخلّل لحيتك ، وتغسل يدك من أصابعك إلى المرفقين ، وتمسح رأسك كلّه ، وتمسح ظاهر أُذنيك وباطنهما ، وتغسل رجليك إلى الكعبين ثلاثاً ، ولا تُخالف ذلك شيئاً إلى غيره)) .

فلمّا وصل الكتاب إلى عليّ بن يقطين تعجّب مما رسم له فيه مما أجمع العصابة على خلافه ، ثم قال : مولاي أعلم بما قال ، وأنا ممتثل أمره ، وكان يعمل في وضوئه على هذه ، قال : وسعى بعليّ بن يقطين إلى الرشيد ، وقيل : إنه رافضي ، مخالف لك ، فقال الرشيد لبعض خاصّته : قد كثر القول في عليّ بن يقطين وميله إلى الرفض ، وقد امتحنته مراراً فما ظهرت منه عليّ ما يقرف به ، فقيل : إنّ الرافضة تخالف في الوضوء فتخففه ولا تغسل الرجلين ، فامتحنه من حيث لا يعلم بالوقوف على وضوئه ، فتركه مدّة ثم ناطه بشيء من شغله في الدار ، حتى دخل وقت الصلاة ، وكان عليّ يخلو في حجرة من الدار لوضوئه وصلاته ، فلمّا دخل وقت الصلاة دخل الرشيد من وراء حائط إلى الحجرة بحيث يرى عليّ بن يقطين ولا يراه هو ، فدعا بالماء فتوضّأ على ما أمره الإمام ، فلم يملك الرشيد نفسه حتى أشرف عليه بحيث يراه ، ثم ناداه : كذب يا عليّ بن يقطين من زعم أنّك من الرافضة ، وصلحت حاله عنده ، وورد كتاب أبي الحسن :

((إبتداء من الآن يا عليّ بن يقطين توضّأ كما أمرك الله : اغسل وجهك مرّة فريضة ، ومرّة إسباغاً ، واغسل يديك من المرفقين كذلك ، وامسح بمقدّم رأسك وظاهر قدميك من فضل نداوة وضوئك ، فقد زال ما كنت أخافه عليك والسلام)) .

فانظر ـ رحمك الله ـ كيف أشار عليه بما يدفع عنه القتل ، ولولا علم

الامام وإشارة الامام عليه لقتل ، فقد أمره بخلاف ما هو مشروع ليدفع الضرر عنه من حيث أنّ دفع الضرر واجب، وتكليف المسلم في حال الاضطرار مغاير لتكليفه في حال الاختيار .

وأما الأحاديث عن أولاد آدم فليس فيه شيء من التناقضات، فانّ من كان الصفوة الأولى من الخلق ، وأول خليفة للّه في الأرض ، أسجد اللّه له ملائكته وعاتبهم من أجله ، وطرد ملكاً منهم وجعله شيطاناً ولعنه وجعله رجيماً ، ألا يجوز أن يرسل اللّه له نساء متعددات من الحور العين ومن الجنّ ليزوّج أبناء منهنّ ، سيّما وقد ذكر الثعلبي في كتابه المسمّى : العرائس :

إنّ أولاده كانوا أربعين نفساً ، فهل بقي هؤلاء الأربعون كلهم بدون زواج ما عدا إثنين منهم ؟ وهل يصحّ هذا في عدل اللّه (عزّ وجل) ؟ وكيف كثرت أولاد آدم حتى بلغت كما نقله الثعلبي عن ابن عبّاس أنه لم يمت حتى نظر إلى أربعين ألفاً من ولده وولد ولده ؟ .

وأكثر العامة :

إنّه زوّج الابن من أُخته التي لم تولد معه ، وفي ذلك يقول أبو العلاء المعرّي :

إذا ما أجلنا الفكر في خلق آدم
وتزويجه إبنيه بنتيه في الخنا
علمنا أنّ الخلق من نسل فاجر
وانّ جميع الناس من عنصر الزنا

وقد ردّ عليه أبو علي الجبائي ، فقال :

لعمري أما فيك فهو مصدّق
وتكذب في الباقين من شطّ أو دنا
كذلك إقرار الفتى لازم له
وفي غيره لغو كذا جاء شرعنا

والضرورة تقضي ببطلان هذا القول :

(أما أولاً) : فلأنّ شريعة آدم شريعة اللّه(عزّ وجل) ، وشريعة لا تتغيّر ، وحكم اللّه لا يبدّل ، وأما النسخ فليس من التغيير والتبديل في شيء ولكنكلّ شريعة تكون ممهّدة لما بعدها ومتممة لما قبلها بحسب حال الإنسان ومقتضى أوضاعه ، إلى أن أكملها اللّه بشريعة سيّد النبيين(صلّى اللّه عليه وآله) ، وشريعة آدم كانت شريعة محمد (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) .

وفي العيّاشي عن سليمان بن خالد ، قال :

قلت لأبي عبد اللّه(عليه السلام) : جُعلتُ فداك إنّ الناس يزعمون أنّ آدم زوّج ابنته من ابنه ، فقال أبو عبد اللّه(عليه السلام) :

((قال الناس ذلك ، ولكن يا سليمان أما علمتَ أنّ رسول اللّه(صلّى اللّه عليه وآله) قال : لو علمتُ أنّ آدم زوّج ابنته من ابنه لزوّجتُ زينب من القاسم ، وما كنتُ لأرغب عن دين آدم ، فقلتُ: جُعلت فداك إنهم يزعمون أنّ قابيل إنما قتل هابيل لأنهما تخايراً على أختهما ؟ فقال له : يا سليمان تقول هذا؟ أما تستحي أن تروي هذا على نبيّ اللّه آدم ؟ فقلتُ: جعلتُ فداك ففيم قتل قابيل هابيل؟ فقال : في الوصيّة ، ثم قال لي : يا سليمان إنّ اللّه تبارك وتعالى أوحى إلى آدم أن يدفع الوصيّة وإسم اللّه الأعظم إلى هابيل ، وكان قابيل أكبر منه ، فبلغ ذلك قابيل فغضب ، فقال : أنا أولى بالكرامة والوصيّة ، فأمرهما أن يقرّبا قرباناً بوحي من اللّه إليه ، ففعلا ، فقبل اللّه قربان هابيل فحسده قابيل فقتله)) .

(ثانياً) : إنّ هذا طعن في قدسيّة الأنبياء وخصوصاً نبيّنا (صلّى اللّه عليه وآله) ، فانه لم يخالط نسبه الشريف من عبد اللّه إلى آدم شيء من سفاح الجاهليّة ، ولم يخرج إلا من نكاح كنكاح الإسلام .

قال في الدرّ المنثور عند ذكر قوله: ﴿وتقلّبك في الساجدين﴾ (الشعراء/الآية ٢١٩) : أخرج ابن أبي حاتم وابن أبي نعيم في الدلائل: عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وتقلّبك في الساجدين﴾ قال:
ما زال النبيّ (صلّى الله عليه وآله وسلّم) يتقلّب في أصلاب الأنبياء حتى ولدته أمّه)).

وأخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس، قال:
سألت رسول الله (ص) فقلت: بأبي أنت وأمّي، أين كنتَ وآدم في الجنّة؟ فتبسّم حتى بدت نواجذه، ثم قال:
((إنّي كنتُ في صلبه، وهبط إلى الأرض وأنا في صلبه، وركبتُ السفينة في صلب أبي نوح، وقُذفتُ في النار في صلب أبي إبراهيم، لم يلتق أبواي قطّ على سفاح، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيّبة إلى الأرحام المطهّرة، مصفّىً مهذّباً، لا تتشعّب شعبتان إلا كنتُ في خيرهما، قد أخذ الله بالنبوّة ميثاقي، وبالإسلام هداني، وبيّن في التوراة والإنجيل ذكري، وبيّن كلّ شيء من صفتي في شرق الأرض وغربها، وعلّمني كتابه، ورقى بي في سمائه، وشقّ لي من أسمائه، فذو العرش محمود وأنا محمد، ووعدني أن يحبوني بالحوض، وأعطاني الكوثر، وأنا أول شافع وأول مشفّع، ثم أخرجني في خير قرون أمّتي، أمّتي الحمّادون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر))، انتهى.

وفي تفسير فرات، عن الامام الباقر (عليه السلام)، قال:
((يراك حين تقوم بأمره، وتقلّبك في أصلاب الأنبياء نبيّ بعد نبي)).

وفي البحار، عن كنز جامع الفوائد:

عنه(عليه السلام) قال :

((يرى تقلّبه في أصلاب النبيين ؛ من نبيّ إلى نبيّ ، حتى أخرجه من صلب أبيه من نكاح غير سفاح من لدن آدم(عليه السلام))) .

وفي تفسير فرات:

عن الإمام الصادق(عليه السلام) ، وقد سُئل : أين كنتم قبل أن يخلق الله سماء مبنيّة ، وأرضاً مدحيّة أو ظلمة أو نوراً؟ ، قال :

((كنّا أشباح نور حول العرش ، نسبّح الله قبل أن يخلق آدم بخمسة عشر ألف عام ، فلمّا خلق الله آدم(عليه السلام) فرغنا في صلبه ، فلم يزل ينقلنا من صلب طاهر إلى رحم مطهّر حتى بعث الله محمداً (صلّى الله عليه وآله))) (ص٢٠٧) .

وفي العلل/ب ١١٦/ باسناده عن أبي ذر(رحمه الله) قال : سمعت رسول الله(صلّى الله عليه وآله) يقول :

((خُلقتُ أنا وعليّ بن أبي طالب من نور واحد ، نسبّح الله يمنة العرش قبل أن خلق الخلق بألفي عام ، فلمّا أن خلق آدم جعل ذلك النور في صلبه ، ولقد سكن الجنة ونحن في صلبه ، ولقد همّ بالخطيئة ونحن في صلبه ، ولقد ركب نوح في السفينة ونحن في صلبه ، فلم يزل ينقلنا الله(عزّ وجل) من أصلاب طاهرة إلى أرحام طاهرة حتى انتهى بنا إلى عبد المطّلب، فقسمنا بنصفين : فجعلني في صلب عبد الله ، وجعل علياً في صلب أبي طالب، وجعل فيّ النبوّة والبركة وجعل في عليّ الفصاحة والفروسيّة ، وشقّ لنا إسمين من أسمائه ؛ فذو العرش محمود وأنا محمد ، والله الأعلى وهذا عليّ)) .

وغير هذا من الأحاديث كثير، وأنت ترى أنه يصف الأصلاب والأرحام بالطهارة، ولا يصحّ هذا الوصف إلا أن تكون أعراقه من جميع الشوائب قديمها وحديثها بدون استثناء.

(ثالثاً): إنّ هذا تعجيز للّه (عزّ وجل) ويريدون أنه غير قادر على إيجاد النسل إلا عن طريق شريعة المجوس، وانّ الذي خلق آدم وخلق حوّاء لا يستطيع أن يخلق آدم آخر وحوّاء أخرى فيزوّج بنات هذا أبناء هذا والعكس، ثم يكون العقب لأحدهما.

ومع ذلك لنا أن نقول:

إنّ الأصل في جميع الأشياء الإباحة، إلى أن يأتي نصّ من اللّه تعالى، إمّا أمر؟ وهذا هو الواجب، وإمّا نهي وهو الحرام، فما المانع من كون هذا الأمر مباحاً في بادي الأمر لاقتضاء المصلحة ذلك، ثم يكون ما يريده اللّه، على أننا لسنا بحاجة إلى هذه الافتراضات بعد ما وردت الأخبار عن الصادقين بما قد مرّ عليك، فانّ اللّه لا يعجزه شيء، وهو أعلم بحقيقة الحال.

أحاديث في بدء الخليقة

في مروج الذهب:

روي عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) أنه قال:

((إنّ اللّه حين شاء تقدير الخليقة، وذرء البريّة، وإبداع المبدعات، نصب الخلق في صور كالهباء، قبل دحو الأرض ورفع السماء، وهو في إنفراد ملكوته، وتوحّد جبروته، فأتاح نوراً من نوره فلمع، ونزع قبساً من ضيائه فسطع، ثم اجتمع النور في وسط تلك الصور الخفيّة فوافق ذلك صورة نبيّنا محمد (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم)، فقال اللّه (عزّ من قائل): أنت المختار المنتخب، وعندك مستودع نوري وكنوز هدايتي، من أجلك أسطّح البطحاء، وأمرج الماء، وأرفع السماء، وأجعل الثواب والعقاب والجنّة والنار، وأنصب أهل بيتك للهداية، وأوتيهم من مكنون علمي ما لا يشكل عليهم دقيق ولا يعييهم خفي، وأجعلهم حجّتي على بريّتي، والمنبّهين على قدرتي ووحدانيّتي، ثم أخذ اللّه عليهم الشهادة بالربوبيّة، والإخلاص والوحدانيّة، فبعد أخذ ما أخذ من ذلك شاب ببصائر الخلق إنتخاب محمد وآله، وأراهم انّ الهداية معه والنور له والإمامة في آله، تقديماً لسنّة العدل وليكون الاعذار متقدّماً، ثم أخفى اللّه الخليقة غيبه، وغيّبها في مكنون علمه، ثم نصب العوامل وبسط الزمان، ومرج الماء، وأثار الزبد، وأهاج

الدخّان، فطفا عرشه على الماء، فسطح الأرض على ظهر الماء، وأخرج من الماء دخّاناً فجعله السماء، ثم استجلبهما إلى الطاعة فأذعنتا بالاستجابة، ثم أنشأ اللّه الملائكة من أنوار أبدعها، و أرواح اخترعها، وقرن بتوحيده نبوّه محمد (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) فشهرت في السماء قبل بعثته في الأرض، فلمّا خلق اللّه آدم أبان فضله للملائكة، وأراهم ما خصّه به من سابق العلم من حيث عرّفه عند استنبائه إيّاه أسماء الأشياء، فجعل اللّه آدم محراباً وكعبة وباباً وقبلة أسجد إليها الأبرار، والروحانيين الأنوار، ثم نبّه آدم على مستودعه، وكشف له عن خطر ما ائتمنه عليه، بعدما سمّاه إماماً عند الملائكة. فكان حظّ آدم من الخير ما أراه من مستودع نوراً، ولم يزل اللّه تعالى يخبأ النور تحت الزمان إلى أن فضّل محمداً (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) في ظاهر الفترات، فدعا الناس ظاهراً وباطناً، وندبهم سرّاً وإعلاناً، واستدعى (عليه السلام) التنبيه على العهد الذي قدّمه إلى الذرّ قبل النسل، فمن وافقه وقبس من مصباح النور المقدّم إهتدى إلى سرّه، واستبان واضح أمره، ومن أبلسته الغفلة إستحقّ السخط، ثم انتقل النور إلى غرائزنا، ولمح أئمتنا، فنحن أنوار السماء وأنوار الأرض، فبنا النجاة، ومنّا مكنون العلم، وإلينا مصير الأمور، وبمهدينا تنقطع الحجج، خاتمة الأئمة، ومنقذ الأُمّة، وغاية النور، ومصدر الأمور، فنحن أفضل المخلوقين، وأشرف الموحّدين، وحجج ربّ العالمين، فليهنأ بالنعمة من تمسّك بولايتنا، وقبض على عروتنا)).

وفي الإختصاص :

قال العالم (عليه السلام) :

((خلق اللّه عالمين متّصلين ، فعالم علوي ، وعالم سفلي ، وركّب العالمين جميعاً في ابن آدم ، وخلقه كرويّاً مدوّراً ، فخلق اللّه رأس ابن آدم كقبّة الفلك ، وشعره كعدد النجوم ، وعينيه كالشمس والقمر ، ومنخريه كالشمال والجنوب ، وأُذنيه كالمشرق والمغرب ، وجعل لمحه كالبرق ، وكلامه كالرعد ، ومشيه كسير الكواكب ، وقعوده كشرفها ، وغفوه كهبوطها ، وموته كاحتراقها ، وخلق في ظهره أربعة وعشرين فقرة كعدد ساعات الليل والنهار ، وخلق له ثلاثين معي كعدد الهلال ثلاثين يوماً ، وخلق له إثني عشر عضواً وهو مقدار ما يقيم الجنين في بطن أُمّه ، وعجنه من مياه أربعة : فخلق المالح في عينيه ، فهما لا يذوبان في الحرّ ولا يخمدان في البرد ، وخلق المرّ في أُذنيه لكيلا تقرّ بها الهوام ، وخلق المني في ظهره لكيلا يعتريه الفساد ، وخلق العذب في لسانه فشهد آدم أن لا إله إلا اللّه ، وخلقه بنفس وجسد وروح ، فروحه التي لا تفارقه إلا بفراق الدنيا ، وبنفسه التي يرى بها الأحلام والمقامات ، وجسمه هو الذي يبلي ويرجع إلى التراب)) .

وفي هذا الحديث إشكال ، وهو قوله : ((وخلق له إثني عشر عضواً وهو مقدار ما يقيم الجنين في بطن أُمّه)) إذ المعروف المتّفق عليه : انّ الولد لا يقيم في بطن أُمّه أكثر من تسعة أشهر ، وقد روى الكليني (رحمه اللّه) في نوادر العقيقة : أنه سُئل الإمام الباقر (عليه السلام) عن غاية الحمل بالولد في بطن أُمّه كم هو؟ فانّ الناس يقولون : ربّما بقي في بطنها سنين ، فقال :

((كذبوا ، أقصى مدّة الحمل تسعة أشهر لا يزيد لحظة ، ولو زاد ساعة لقتل أُمّه قبل أن يخرج)) .

إلا أنه روى العيّاشي في قوله تعالى :﴿اللّه يعلم ما تحمل كلّ أُنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكلّ شيء عنده بمقدار﴾ (الرعد/الآية ٨) ، عن زرارة عن الإمام الصادق(عليه السلام) :﴿اللّه يعلم ما تحمل كلّ أُنثى﴾، قال :

((الذكر والأُنثى ،﴿وما تغيض الأرحام﴾قال : ما كان دون التسعة فهو غيض ، ﴿وما تزداد﴾قال : إذا رأت الدم في حال حملها إزداد به على التسعة الأشهر، إن كانت رأت الدم خمسة أيام أو أقلّ أو أكثر زاد ذلك على التسعة الأشهر)) .

وقال ابن مسكويه في كتاب : ((الفوز الأصغر)) :

في أنّ الإنسان عالم صغير ، وفيه نظائر جميع ما في العالم الكبير :

لمّا كان الإنسان مركّباً لم يجز أن يوجد فيه العناصر بسيطة ، لأنها لو وجدت فيه لحللته سريعاً ، أعني الجزء من النار بعينه إذا جاور المركّب منه ومن غيره حلّه وردّه بسيطاً ، وكذلك حال الباقيات، وإن كانت النار أظهر فعلاً ، فلمّا لم يكن ذلك وجب أن توجد فيه مركّبة .

وإن نظرنا في ذلك وجدنا في الإنسان ما يجري مجرى النار في الحرّ واليبس ، ومجرى الأرض في البرد واليبس ، ومجرى الهواء في الحرارة والرطوبة ، ومجرى الماء في البرودة والرطوبة .

أمّا ما يجري مجرى النار منه ، فالنار المعلّقة بالكبد ، لأنها حارّة يابسة ، وهي مستقرّ هذا الخلق ومفيدة من جميع البدن .

وأمّا ما يجري مجرى الأرض ، فالطحال ، لأنه بارد يابس ، وهذا أيضاً مستقرّ هذا النوع من الأخلاط ومفيضة من جميع البدن .

وأمّا ما يجري مجرى الهواء ، فالدم الذي في العروق ، لأنه حارّ رطب .

وأمّا ما يجري مجرى الماء ، فالبلغم ، ولم يفرد له وعاء يخصّه ، كما علم في الأركان الثلاثة ، من أجل أنه مستعدّ لينهضم ، فاذا انهضم صار غذاء تامّاً ولم يكن له فضله ، وليس كذلك الآخر .

وبنوع آخر من الاعتبار :

القلب : معدن الحرارة واليبس ، وهو بطبع النار .

والدم : معدن الحرارة والرطوبة ، وهو بطبع الهواء .

والدماغ : معدن البرودة والرطوبة ، وهو بطبع الماء .

والعظام : معدن البرودة واليبوسة ، وهي بطبع الأرض .

وكان هذه الأربعة أصول أوائل لتلك الأربعة ، وتلك فروعها .

فأمّا مثال آخر مما في العالم الكبير :

فانّ الرطوبات التي تخرج من العين والفمّ تجري مجرى العيون والأنهار في الأرض ، وبخار البدن يجري مجرى السحاب ، والعرق يجري مجرى المطر .

فأمّا العروق : فكبارها تجري مجرى الأودية ، وصغارها تجري مجرى الأنهار والجداول .

وأمّا الشعور كلّها ، فهي جارية مجرى النبات .

والحيوان الذي يتولّد في ظاهر البدن يجري مجرى حيوان البرّ ، والذي في باطنه يجري مجرى حيوان البحر .

ونصف البدن المقدّم الذي فيه الوجه : يجري مجرى العامر من الأرض الذي فيه البلدان ، ونصفه الآخر الذي فيه القفا : يجري مجرى الخراب من الأرض الذي فيه البراري .

فأما العين : فتجري مجرى الكواكب بناظرها وشعاعها ، وطبقات العين تجري مجرى أفلاك الكواكب.

ويحدث في البدن جميع ما يحدث في العالم من الرياح والزلازل والطوفان والرجفة ، أعني العطاس والزكام والحميات وغيرها من عوارض البدن.

ثم انّ في البدن ما يتحرّك من ذاته وبالطبع ولا يسكن بتّة ، ومنها ما هو ساكن بذاته بالطبع ، ومنها ما يتحرّك بالقهر وبالعرض.

وأمّا شكل البدن كلّه وما كان يجب من استدارته : فيشبه العالم الكبير ، ويساويه في شرف هذا الشكل وفضله على جميع الأشكال فكذلك هو.

وذلك انّ المقصود من جميع بدن الإنسان هو الرأس الذي خلق مستديراً ، وهو تامّ كامل ، فيه الحواس الخمس ، وفيه تظهر آثار الإنسانيّة من التمييز والفهم والذكر والفكر ، وبالجملة : جميع قوى النفس ، إلا أنه لو أفرد ولم يوصل بسائر أجزاء البدن لما تمّت حياته مدّة طويلة ، ولعرضت له الآفات الكثيرة في الزمن اليسير ، وذلك لحاجته إلى الإنتقال والسعي ودفع الأذيّات وليس يتمّ له ذلك إلا بالحركة.

وحركة المستدير نحو حاجاته تكون بالتدحرج ، وفيه من التعرّض للآفات ما لا خفاء به ، وهو مع ذلك محتاج إلى حرارة تحفظ عليه اعتدالاً خاصّاً ومزاجاً محفوظاً ، وتلك الحرارة لطيفة جدّاً ، وكان ينبغي أن تكون في الوسط ، كالمركز ، لتنتشر إلى أطراف الكرة بالسواء ، وتحفظ عليه مزاجه ، وجوهر الدماغ لا يصلح لذلك ، فلو جعلت الحرارة اللطيفة في وسطه لأطفئ منّا سريعاً وتلف الإنسان ، وأيضاً فانّ الحرارة إذا جاورت الرطوبة أحدثت

البخارات الكثيرة، والبخارات إذا لم تجد منافذ إلى الهواء عادت إلى الحرارة فأطفأتها للوقت.

فوجب من هذه الأشياء وغيرها ـ مما يطول ذكره ـ أن تبعد تلك الحرارة، ولمّا أبعدت احتيج إلى أن يوصل بينها وبين جوهر الدماغ بمجاري ومنافذ تجري مجرى القول؛ وهو الشريانات التي بين القلب وبينه، ولمّا بعد ذلك احتيج إلى زيادة الحرارة وقوّتها ـ إذ كانت تصل إلى هناك في مسافة طويلة وقد نقص بعض سؤرتها ـ فجعل في القلب حرارة أزيد ليصل إلى الدماغ منها بحسب الحاجة والكفاية لحفظ مزاجه.

ولمّا زيدت هذه الحرارة احتدت فحصل منها مما يجاورها من القلب بخار دخّاني، واحتاج إلى نافخ ينفخ عنها أبداً بالمنفخ البخاري، ويجلب لها الهواء الموافق لها الذي يبقى فيه، فلذلك خلقت له الرئة آله للتنفّس، لتروّح الحرارة وتخدمها في أسباب البقاء.

ولمّا احتاج إلى الغذاء الموافق لردّ العوض عمّا تحلل منه بالحرارة خلقت له آلة الغذاء وتوابعها، وما تخدمه في ذلك الرجلين للسعي المؤثر والهرب من المكروه، والتدبّر لتناول المنافع ودفع المضار، وجميع ما بيّن في كتاب: ((منافع الأعضاء)) من جليلها ودقيقها، ظاهرها وباطنها التي دلّت على حكمة تامّة، وقدرة بالغة، وتدبير غامض، وهذا القدر كاف في أنّ الإنسان عالم صغير، إنتهى.

تفسير قول الله تعالى في أول سورة النساء

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾.

قوله: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾:

قال الرازي:

إنه تعالى جعل هذا المطلع لسورتين من القرآن:

إحداهما: هذه السورة، وهي السورة الرابعة من النصف الأول من القرآن.

والثانية: سورة الحج، وهي أيضاً السورة الرابعة من النصف الثاني من القرآن.

ثم إنه تعالى علل الأمر بالتقوى في هذه السورة بما يدلّ على معرفة المبدأ، وهو أنه تعالى خلق الخلق من نفس واحدة، وهذا يدلّ على كمال قدرة الخالق وكمال علمه، وكمال حكمته وجلاله.

وعلل الأمر بالتقوى في سورة الحج بما يدلّ على كمال معرفة المعاد، وهو قوله: ﴿إنّ زلزلة الساعة شيء عظيم﴾.

فجعل صدر هاتين السورتين دلالة على معرفة المبدأ ومعرفة المعاد، ثم قدّم السورة الدالّة على المبدأ على السورة الدالّة على المعاد، وتحت هذا البحث أسرار كثيرة، إنتهى.

والتقوى: من الوقاية والإتّقاء، وهو الحذر والتستّر عن الأمر المكروه لا يصل إليه منه الضرر، فيكون معنى قوله: ﴿إتّقوا ربكم﴾: إحذروا أيها الناس

ربكم، فلا تخالفوه فيما أمركم به أو نهاكم عنه، لئلا يحلّ بكم من عقوبته ما لا قبل لكم به،

وإذا أخذنا التقوى من القوّة ؟ فيكون المعنى :

كونوا أقوياء على طاعة اللّه والتزوّد من الأعمال الصالحة لتكونوا سعداء في مجاورة اللّه في الدار الآخر.

ثم وصف نفسه : بأنه المتوحّد المتفرّد بخلق جميع الأنام من نفس واحدة، منبّها بذلك إيّاهم بأنهم كلّهم بنو رجل واحد وامرأة واحدة، وانّ بعضهم من بعض، وانهم متّحدون في الحقيقة الإنسانيّة، لا فرق بين الرجل والمرأة والصغير والكبير والقويّ والضعيف، إذ كلّ فرد يطلق عليه إنسان، وانّ حقّ بعضهم على بعضهم واجب، لأنهم إخوة تحدّروا من أصل واحد.

فهو يدعوهم إلى العدل فيما بينهم وإنصافهم من أنفسهم، وأن لا يجحف القويّ على الضعيف، ولا يزدري الرجال بالنساء، ولا يظلم الكبير الصغير، ولا يستهين الجليل بالحقير، والقصد من ذلك تتميم سعادتهم، وتسهيل أمور حياتهم، وحفظ وجودهم وبقائهم فرادى ومجتمعين، فانّ الإنسان مدنيّ بطبعه، ولا يمكنه التعايش لوحده، بل لا بدّ له من التعاون مع الغير من أهل نوعه، وهذا لا يتمّ مع التنافر، بل لا بدّ وأن تكون هناك محبّة وألفة، ومن دواعي المحبّة وموجبات الألفة : حسن السياسة وصدق المعاملة، قال تعالى :

﴿إدفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ (فصّلت / الآية ٣٥).

وقال النبيّ الأكرم (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) :

((لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يحبّ لأخيه ما يحبّه لنفسه ويكره لأخيه

ما يكرهه لنفسه)) .

وروي أن الكاظم(عليه السلام) مرّ برجل من أهل السواد دميم المنظر، فسلّم عليه، ونزل عنده، وحادثه طويلاً، ثم عرض(صلوات اللّه عليه) عليه نفسه في القيام بحاجة إن عرضت له، فقيل له: يابن رسول اللّه أتنزل إلى هذا ثم تسأله عن حوائجه وهو إليك أحوج ؟ فقال(عليه السلام) :

((عبد من عبيد اللّه، وجار في بلاد اللّه، وأخ في كتاب اللّه، يجمعنا وإيّاه خير الآباء آدم(عليه السلام) ، وأفضل الأديان الإسلام، ولعلّ الدهر يردّ من حاجتنا إليه، فيرانا ـ بعد الزهو عليه ـ متواضعين بين يديه، ثم قال(عليه السلام) :

نواصل من لا يستحقّ وصالنا مخافة أن نبقى بغير صديق))

المُرادُ بالنَفسِ الوَاحِدَة

والمراد بالنفس الواحدة: آدم(عليه السلام) ، ﴿وخلق منها زوجها﴾ أي: من نوعها وشكلها، أو من سنخها، وأصلها، لأنّ حوّاء خلقت من فاضل طينة آدم، كما هو المرويّ عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ، لا كما يقول بعض أهل التفسير لأنّ الذي خلق آدم من الطين لا يعجز عن خلق زوج له من الطين نفسه، والذي يخلق من نقطة صغيرة من المني مخلوقاً عجيب التركيب ذا أجزاء متباينة وأعضاء متغايرة وفيه غرائز وميول كثيرة مما يدلّ على عموم قدرته سبحانه فلا يعجزه شيء، أما يخجل صاحب هذا القول من نسبة الحاجة إلى اللّه إلى إنقاص عضو من مخلوقه ليجعله رفيقة وزوجة فيكون آدم ينكح نفسه بنفسه، فترتفع اللائمة حينئذٍ عن المجوس الذين ينكحون بناتهم وأخواتهم، ما هذا الإفتراء والبهتان على خليفة اللّه الأول في أرضه ؟ وأول حجّة له على خلقه؟ وكذلك الذي ينشر ويبثّ من النفس الواحدة هذا الخلق الكثير العظيم ألا يحقّ له أن يتّقى ؟ وربّما نوّعوا التقوى أنواعاً وأعطوا

كلّ نوع صفة، وأكثروا من الأسماء والصفات، والذي أراه: انّ التقوى ليس هو تجنّب الحرام، بل هو اجتناب كلّ ما يشغل أو يلهى عن ذكر الله.

فضل سورة الفاتحة

وليكن ختام كتابنا حديث في ذكر فضل سورة الفاتحة:

رواه الصدوق في كتاب: ((الأمالي)) باسناده عن الإمام أبي محمد الحسن العسكري عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين (عليهم السلام) قال:

((قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم): قال الله تبارك وتعالى قسمت فاتحة الكتاب بيني وبين عبدي، فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل...

إذا قال العبد: ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾ قال الله (جلّ جلاله): بدأ عبدي باسمي، وحقّ عليّ أن أتم له أموره وأبارك له في أحواله..

فاذا قال: ﴿الحمد لله ربّ العالمين﴾ قال الله (جل جلاله): حمدني عبدي، علم أنّ النعم التي له عندي، وانّ البلايا التي إن دفعت عنه فبتطوّلي، أشهدكم أنّي أضيف له إلى نعم الدنيا نعم الآخرة، وأرفع عنه بلايا الآخرة كما رفعت عنه بلايا الدنيا.. فاذا قال: ﴿الرحمٰن الرحيم﴾ قال الله (جلّ جلاله): شهد لي بأنّي الرحمٰن الرحيم، أشهدكم لأوفّرنّ من رحمتي حظّه، ولأجزلنّ من عطائي نصيبه.. فاذا قال: ﴿مالك يوم الدين﴾ قال الله (عزّ وجل): أشهدكم كما اعترف بأنّي أنا مالك يوم الدين لأسهّلنّ اليوم حسابه، ولأتقبّلنّ حسناته، ولأتجاوزنّ عن سيّئاته.. فاذا قال: ﴿إيّاك نعبد﴾ قال الله (عزّ وجلّ): صدق عبدي، إيّاي يعبد، أشهدكم لأثيبنّه على عبادته ثواباً يغبطه كلّ من خالفه في عبادته لي.. فاذا قال: ﴿وإيّاك نستعين﴾ قال الله (عزّ وجل): بي استعان، وإلى التجأ، أشهدكم

لأعينّه على أمره، ولأغيثنّه في شدائده، ولآخذنّ بيده يوم نوائبه..
فاذا قال: ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ إلى آخر السورة، قال اللّه (جلّ جلاله): هذا لعبدي ولعبدي ما سأل، قد استجبت لعبدي وأعطيته ما أمّل، وآمنته مما منه وجل..)).

وقيل لأمير المؤمنين (عليه السلام): يا أمير المؤمنين أخبرنا عن: ﴿بسم اللّه الرحمٰن الرحيم﴾ أهي من فاتحة الكتاب؟ فقال:

((نعم، كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) يقرؤها ويعدّها آية منها، ويقول: فاتحة الكتاب هي السبع المثاني)).

خاتمة الكتاب

وكنت فرغت من مسوّدته بعد ظهر يوم الأحد ـ عاشر رجب الفرد سنة الأربعمائة بعد الألف من هجرة سيّد المرسلين (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم)، وفي أول شهر رمضان من السنة الخامسة بعد الأربعمائة وألف إبتدأت بتبييضه وفرغت عنه في السادس عشر من الشهر المذكور، وأنا أقلّ العباد عملاً وأكثرهم زللاً،

((مصطفى بن محمد بن مرتضى بن حسين بن حيدر بن مرتضى بن))
((محمد بن حيدر بن محمد بن مرتضى بن حيدر بن علي بن حيدر بن))
((محمد بن يوسف بن محمد بن قاسم بن الحسين بن محمد بن عيسى))
((بن طاهر بن محمد بن أبي الحسن علي المعروف بابن هنفا))
((بن محمد بن أحمد الناصر بن أبي الصلب يحيى بن أبي))
((العبّاس أحمد بن أبي الحسن عليّ بن عيسى بن يحيى بن))
((الحسين ذي الدمعة بن زيد الشهيد بن الإمام زين العابدين))
((عليّ بن الحسين بن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب))
((وسلام على المرسلين، والحمد للّه ربّ العالمين))

مُحتويات الكِتاب

المقدّمة	٣
الشيطان يُخوّف أولياءه	٥
عباد الله	٨
سلسلة الذهب	٩
العقل	١٢
الفرق بين النبيّ والرسول	١٧
معنى الخلقة	١٨
النبيّ أعقل أُمّته	١٩
عبادة العاقل	٢٥
كلام للصدر الشيرازي	٢٦
شرح كلمات لأمير المؤمنين (ع)	٢٩
العقل والمال	٢٩
العُجب	٣٣
لا عقل كالتدبير	٣٤
لا كرم كالتقوى	٣٤
حُسْنُ الخُلق	٣٥
لا ميراث كالأدب	٣٦
لا قائد كالتوفيق	٣٦

((محتويات الكتاب))

العمل الصالح	٣٧
الوقوف عند الشبهة	٤٠
الزهد في الحرام	٤٠
لا علم كالتفكّر	٤٣
أداء الفرائض	٤٥
الحياء والصبر	٤٦
التواضع	٤٩
لا شرف كالعلم	٥١
المُراد بالفريضة العادلة	٥٤
المُراد بالسُنّة القائمة	٥٥
المشاورة	٥٦
آيات من سورة: ((ويلٌ للمُطفّفين))	٥٧
ما المراد بسجّين؟	٥٨
كتاب مرقوم	٦١
أخبار الطينة .. ومعناها	٦١
كيف بدأ النسل من ذرّية آدم (ع)؟	٦٨
أحاديث في بدء الخلقة	٨١
تفسير قول اللّه تعالى في أول سورة النساء	٨٨
المُراد بالنفس الواحدة	٩٠
فضل سورة الفاتحة	٩١
خاتمة الكتاب	٩٢

8774

VETVS NOVVM TESTAMENTVM
DEI SVB NVMINE VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

WERT
BOOKBINDING
Grantville Pa
JULY-AUG 1992
We're Quality Bound

Princeton University Library
32101 061977268